obeikandl.com

obeikandl.com

السيد العبد

ليس فقط من أجل إشباع الاحتياجات الأولية يعيش الإنسان، إن الفيلسوف الألمانى هيجل يرى أن الإنسان يبغى من الآخرين الاعتراف به ككائن حى له كينونته وكرامته وينشد منهم الاحترام والتقدير حتى وإن أدى ذلك إلى الخوض فى صراع من أجل أن ينال هذا التبجيل، مضحياً بأهم الغرائز وهى غريزة حب البقاء. قديماً نشأ التحدى بالسيف أو بالمسدسات من أجل إحساس أحد المتخاصمين أن كرامته قد أهينت، قد يتصارعان حتى الموت من أجل خطأ قد يراه البعض منا اليوم أنه لا يستحق الاعتذار.. قد خُلقت الكرامة والحمية والكبرياء داخلنا، لقد وصفها الفيلسوف الأغريقى أفلاطون بالقوة الغضبية أو الثيموس (Thymos) .. هذه القوة هى التى تغذى فينا الشجاعة والحماسة والإقدام من أجل أن يعرف الملأ أنه يوجد إنسان يحيا ويجب احترامه، ويجىء دور العقل الذى يميز ويخطط ويقارن بين أفضل الطرق لنيل التقدير، ويختار السلوك المناسب لاكتساب احترام الآخرين، أنها حمية السيد الذى يخوض الأهوال والمخاطر.

يرى الكاتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى كتابة "نهاية التاريخ وخاتم البشر" أن الحاجة إلى الاعتراف والتقدير هى الحلقة المفقودة بين الاقتصاد الليبرالى والسياسية الليبرالية، فالرغبة والعقل يفسران جوانب كثيرة من الحياة الاقتصادية بوجه عام، غير أنهما لا يفسران النضال من أجل الديمقراطية الليبرالية الناشئة من قوة الغضب من أجل الحصول على الاعتراف والتقدير.

الإنسان عبر حياته فى هذا الكون يصارع من يخالفه فى جميع مجالات الحياة، فى العمل والعقيدة والثقافة والفن والأدب والعلم وخلافه، من أجل أن يثبت للآخرين أنه إنسان جدير بالاحترام وأن رأيه على صواب .. تتجمع الآراء والفلسفات المتقاربة ، وتتكون إيدلوچيات وسياسات، منها رأسمالية أو اشتراكية، منها ديمقراطية أو دكتاتورية، ومنها انفتاح أو انغلاق ، وتختلف الجماعات أو الدول

وتنشب الحروب من أجل إجبار طرف بالاعتراف وبقبول الرأى الآخر، قد يكون كل منهما على حق، فالمعايير نسبية، ولكن هذه هى طبيعة الإنسان السيد الذى يختلف عن طبيعة العبد الذى يستسلم مبكراً ويتنازل عن رأيه بدون صراع.

لم يكن نيتشه هو الفيلسوف الوحيد من الفلاسفة الألمان الذى حث على الخوض فى المخاطر حتى ينال الإنسان الحرية والتقدير، هذه الفلسفة اللاشرقية التى نبعت من بلاد الأغريق وتبناها نيتشه، وحاولت تطبيقها الحركات الثورية المعاصرة فى آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، وفى أوروبا الشرقية، هذه الفلسفة التى كانت سبباً فى نشوب كثير من الحروب وقتل ملايين من البشر، سار على هداها هتلر وموسولينى فدمرت أوروبا وبلاد أخرى عديدة.

اختلف هيجل عن كارل ماركس فى أن الفوارق الطبقية لا تقوم على أساس اقتصادى، كان هيجل مثل نيتشه يرى أن المجتمع ينقسم إلى سادة على استعداد للمخاطرة بحياتهم من أجل تقدير الآخرين لهم، وعبيد ليس عندهم هذا الاستعداد للمخاطرة ويستسلمون بسهولة لأقدارهم، فى الواقع أن كل من العاملين هامين فى تكوين قدر الإنسان، فإذا كان الإنسان الميسور مادياً والذى أشبع رغباته واحتياجاته الأولية من طعام وشراب وملبس ومسكن يتطلع إلى التقدير والتبجيل، فإن الإنسان المعدم الذى لا يكاد يفى بقوت نفسه أو أسرته لا يتقد ذهنه حتى مروراً عابراً فى التفكير فى المطالبة بالاحترام والتبجيل بينما احتياجاته البيولوچية تصرخ من آلام الجوع والظمأ ومعاناة برد الشتاء القاسى.

كتب د. إمام عبدالفتاح فى واحد من أوفى الكتب عن الطغيان والعبودية "الطاغية – دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى" سرد فيه تاريخ العبودية.. فمن العهد الأغريقى ذهب الفيلسوف أرسطو إلى أن الناس بطبيعتهم يمكن تقسيمهم إلى سادة وعبيد، وأن بعض الأجناس رقيق بالطبع والبعض الآخر أحرار بالطبع، وأن الشرقيون بطبيعتهم عبيد، يعشقون الطغيان، ويستمتعون بالقسوة، ويخلقون الطاغية إن لم يكن متاح.. وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ذهب

مونتسكيو إلى أن الاستبداد والاستعباد نظام طبيعى بالنسبة للشرق.. أما هيجل فكان يعتقد أن الطغيان الشرقى يرجع إى أن الشرقيين لم يتوصلوا إلى معرفة أن الروح أو الإنسان كائن حر وعلى ذلك فأنهم لم يكونوا أحرارا، وكل ما عرفوه أن شخصاً معيناً حر وهو الحاكم الطاغية وبقية الشعب عبيد له بالطبيعة.. وقد ذهب د. إمام إلى أن جميع النظريات التى تفرق بين البشر وتتحدث عن طبيعة خاصة عند الشرقيين أو غيرهم هى نظريات خاطئة، ولكنه يرى أن الشعوب التى اعتادت حكم الطغاة القائم على الاستعباد لعدة آلاف من السنين قد نجد لديها استعداداً للتسليم بهذا الشكل من أشكال الحكم أسرع من غيرها.. واستطرد د. إمام فى كتابه عن الطاغية :« لا شك إن الأمم الشرقية أصبحت تنشد الحكم الاستبدادى، لطول ألفها له، ومازال أبناءها يتسابقون فى تدبيج القصائد التى تتغنى بأياديه البيضاء على الناس، ولم يعد الحاكم الشرقى يجد حرجاً فى تسخير الصحافة، والإذاعة، والتليفزيون، وجميع وسائل الإعلام للحديث عن أمجاده وبطولاته وانتصاراته، حتى لو أنه انهزم هزيمة منكرة - ومن مظاهر التقديس للحكم أن تتصدر صوره جميع الصحف، وأن تكون تنقلاته وأخباره - حتى لو كانت مما يمارسه رئيس الدولة فى حياته الروتينية المألوفة - هى الخبر الأول فى جميع نشرات الأخبار).

ذهب آدم سميث رائد التحرير الاقتصادى فى القرن الثامن عشر، فى نظرته إلى الرق من الوجهة الاقتصادية إلى أن:« العمل الذى يؤديه الأحرار هو فى النهاية أرخص من ذلك الذى يؤديه العبيد» ، فبالرغم من دفاع آدم سميث عن الملكية الخاصة لأنها حافز للجرأة والمغامرة، وإيمانه بأن الأعمال المتاحة والأجور المدفوعة سيتوقف أولاً وقبل كل شىء على تجميع رأس المال واستخدامه، فقد دعى سميث إلى رفع الأجور باعتبار هذا الرفع مجزياً لصاحب العمل والعامل على السواء.

بالرغم من إيمان الفيلسوف الفرنسى مونتسيكو فى القرن الثامن عشر بالنظام الطبيعى الذى يميز الأفراد بسبب المولد أو الثروة، إلا أنه هاجم الرق وفند مبرراته ، فقد رأى مونتسيكو أن العبودية تخلق فى العبد جميع أنواع العادات السيئة، كما يفقد العبد فى عبوديته جميع فضائل الأخلاق حيث يتحول إلى إنسان - أو حيوان كما

يناديه بعض الفلاسفة – قاسى، شهوانى، وجائر، فند مونتسيكو مصادر الرق الثلاثة وهى الأسر فى الحرب، أو بيع الحر نفسه، أو بيع الأسرة لأحد الأبناء نتيجة للفقر. . ففى الحرب يجب على المنتصر فقط أن يطمئن ألا يعود الأسير إلى إيقاع الضرر به لا أن يتخذه كعبد، أما بيع الحر نفسه أو لأحد أبنائه فهذا لا يجوز نظراً لأن عملية البيع تستلزم ثمناً وإذا باع الحر نفسه فإنه يصبح عبداً هو وماله ملكاً للسيد أى تنتفى صفة العملية التجارية، وأيضاً لا يستطيع الإنسان بيع ابنه لأن الابناء وإن كانت مسئوليتهم تقع على الأب فهذه المسئولية تنتهى ببلوغ الابن أو الابنة السن القانونية.

الخوف والقلق وعدم الإحساس بالأمان صفات تلازم السيد العبد طوال حياته، أن جرأة وشجاعة السيد تحميه من الخوف والقلق من المجهول، فالسيد لا يبالى بما سيأتى به القدر طالما سلك طريق المخاطر والأهوال، أما العبد فقد رضى بعبوديته وقنع بحياته ، يخدم سيده من واقع فلسفة العبيد، يعينه الصبر والإيمان على تحمل مشاق الطريق الذى اختاره.

القلق آفة العصر ، صفة الإنسان الذى يتأرجح ما بين السيد والعبد، هو شعور يمتلك الإنسان فيتوقع الشر دائماً ويعيش حياته متشائماً، يتشكك فى من حوله وفى كل أمور حياته خوفاً من أن يصيبه الضرر من أن يعيش كعبد، فسمة السيادة مازالت جزء فيه وخوفه من العبودية تلازمه وتكدر عليه معيشته، فيصاب بأمراض نفسية وعضوية. . الحياة مليئة بالمفاجآت، والسيد العبد وإن كان لديه بعض من القوة فهو ليس فى قوة السيد الذى يتحمل المشاق والصعاب، إذا كان القلق مفيد أحياناً كونه حافزاً لبذل مزيد من الجهد والعمل وأخذ الاحتياطات اللازمة عند اتخاذ القرار إلا أنه يجعل الإنسان لا يستمتع بحياته ، ينشد الأمان فى جمع المال والتقتير على نفسه وعلى الآخرين، يتنازل عن جزء من كبريائه وخصوصيته من أجل صحبة يشعر معها بالأمان، فصورته كعبد تظهر دائماً أمامه تؤرق منامه، وتفسد سعادته فى أوقات السيادة.

يمكن تلخيص ما خطه فوكوياما فى سرده لفكر الفلاسفة السابقين عن العلاقة بين السيد والعبد والتى جاء ذكرها فى كتابه عن نهاية التاريخ فى النقاط التالية:

- يذهب هيجل إلى أن الدولة العامة والمتجانسة ستحقق تسوية تامة للتناقض فى العلاقة بين السيد والعبد يجعل العبيد السابقين سادة أنفسهم، ولكن ستظل بقايا من وصف حرية السيد وعمل العبد.

- ينكر كارل ماركس الاعتراف العام من السيد للعبد لوجود الطبقات الاقتصادية.

- يرى نيتشه أن خاتم البشر هو العبد الظافر، وأنه ليس هناك فارق كبير بين هيجل وماركس حيث أن هدفهما واحد، وهو مجتمع يجسد الاعتراف العام.

- يمكن للضعفاء من خلال الفكر الدينى التغلب على الأقوياء متى تجمعوا معاً فى قطيع، واستخدموا سلاحى الذنب والضمير.

- إن نموذج المواطن فى الديمقراطية الليبرالية هو الفرد الذى تخلى - وفق تعاليم هوبز ولوك- عن إيمانه الفخور بتفوقه فى مقابل حفظ الذات والراحة.

إن الاتجاه العام (Trend) لمسار التاريخ يتجه الآن أكثر إلى الإنسان السيد العبد، تطحنه متطلبات حياة الرفاهية الاستهلاكية، ويثور بدون إراقة الدماء، قد ينافق ويداهن حتى يعلو (علشان ما نعلى ونعلى ونعلى .. لازم نطاطى، نطاطى، نطاطى) ، ويفرغ شحنة حمية كبريائه المهان فيما هو أقل منه، فتنشأ مشاجرات خفيفة نسبياً تمتص انفعالات نابعة من غرائز متعددة ومتناقضة تفرض علينا طبيعة السيد العبد.

انتهج الإنسان الحديث أسلوب المراوغة وفن التمويه فى معاملاته مع الآخرين، وقد ورث هذا السلوك من العبودية القديمة التى حتمت عليه أن يراوغ السيد المالك حتى لا ينال عقابه، فإن لم تساعد الظروف والأحداث أن يباشر المرؤوس أسلوبه فبإمكانه أن يراوغ الرئيس للحفاظ على العلاقة التمثيلية القائمة بين الرئيس

والمرؤوس. . لبس الرئيس رداء السيد المتعالى، وارتدى المرؤوس جلباب العبد الخاضع، ويمثل نفس السيد دور العبد لمن أعلى منه، وتتواصل السلسلة من أعلى الهيكل الوظيفى الهرمى إلى قاعدته. وتستمر اللعبة حتى يفقد السيد أو الرئيس منصبه، فينصب عليه ازدراء واحتقار مرؤوسيه ويبدأ نفس سيناريو النفاق والمراوغة مع الرئيس الجديد . . طبقت الشعوب المستعمرة والأقليات نفس السياسة للمعايشة مع المستعمر الطاغى أو مع الفئة المسيطرة على الحكم.

بزغت وترعرعت فى العهد الحديث الثقافة المتوارية، أو كما أسماها العالم الاجتماعى جيمس سكوت بالتراث المكتوم ، وهى ثقافة نابعة من طبقة الأرقاء والعبيد، والطبقات الدنيا والمنبوذة من جميع الحضارات وعلى مدى العصور، ثقافة بنيت على المهادنة والخديعة والنفاق، والسخرية من الطبقات الأعلى، المتسيدة والحاكمة ، كما تقوم هذه الثقافة على الرشوة والابتزاز والمراوغة فى الحديث وفى الأفعال، تحث الجهلة من عامة البشر المطحونين على التمرد والعصيان بينما يتظاهر المحرضون بالخضوع للسلطة الحاكمة، ثقافة قائمة على كبت الغضب ، والتفاخر بالأخلاق الحميدة، مواريين الحقد الكامن، والرغبة فى الانتقام داخل الذات المترقبة الفرصة السانحة للارتقاء والسيطرة وسحق الأقل شأناً ، وأولهم من قدم يد المساعدة ليصعد ويتحكم على شاكلة السيد العبد. . هذا الإنسان الحديث، الملئ بكل مساوئ وجميع شرور السيد والعبد، يملك أحقر السلوك، بينما يتغنى بالصفات الكريمة التى لايملكها ، يصدقه الكثيرون، وما أكثر الجهلة والأفاقين المنافقين.

لقد صارع الإنسان العبد على مر العصور لينال حريته، قبل ثورة سبارتكوس قائد العبيد فى العصر الرومانى القديم وحتى ثورة الأمريكى الأسود فى القرن الماضى ومابينها، وجدت أديان سماوية وغير سماوية تنصف العبد والضعيف، قامت ثورات فى جميع أنحاء العالم الحديث للقضاء على الاستعمار والإمبريالية ، بزغت إيدلوجيات حديثة تتكلم عن الاشتراكية والشيوعية واستغلال صاحب رأس المال للعامل أو الفلاح الضعيف أى استغلال السيد للعبد، وطبقت هذه الإيدلوجيات وأنهار بعض من هذه الأنظمة. . يناضل العبد منذ قديم الزمن لنيل حريته ليصبح

سيد نفسه، ولكن إذا سادت الديمقراطية والمساواة والحرية، وانتهت الفروق بين الطبقات فهل سيصبح الإنسان سعيداً. . ستقضى الحياة بدون ألم الصراع على إبداع الإنسان وإلهامه، سوف ينتهى الفن ويضمحل التأمل وستصبح الفلسفة من مخلفات التاريخ.

إن القناعة والرضا تنبع من داخل الإنسان، كما ينبع تحفز عدم الرضا من الداخل أيضاً، لقد وضع فينا كجزء من نظام بشرى القناعة والرضا وكذلك التمرد على الوضع الذى نحن فيه، نظام قائم فينا من أجل أن نشعر بالسعادة التى تعقب الشقاء، لكى نحس بالراحة التى تعقب التعب والكد، فوجود طرف يلزم وجود طرف آخر وإن كانا الطرفين هما النقيضين، نظام إنسانى (Human System) خلق فينا كما خلق ما حولنا، فنحن جزء من نظام كونى لا يعرف آلياته الكاملة المتكاملة إلا اللّه ، وما نحن البشر إلا جزء صغير جداً من هذا النظام الكونى، وما الفرد إلا جزء غاية من الضآلة فى هذا النظام، ولكن وإن صغر الجزء إلا أنه يعتبر جزءاً من نظام يتكامل النظام به.

هل تثور الدولة العبد على استعبادها، ما الثورات العديدة التى حدثت خلال القرن العشرون إلا ثورات دول مستعبدة أو كانت تسمى دول مستعمرة. . لقد انتهى الاستعمار الأمبريالى التقليدى، ولكن حدث غزو آخر جديد عن طريق هيمنة رأس المال والتفوق الاقتصادى والتكنولوچى، فالصراع بين السيد والعبد لم ينتهى ولن ينتهى، فالسيد داخلنا والعبد أيضاً داخلنا، والإنسان ذاته هو الذى يرضى أن يحيا كالعبيد أو يثور على وضعه ويصارع، طمعاً لأن يصبح سيداً، فيدخل فى صراع آخر مع العبيد، فالإنسان كعبد يصارع وكسيد يصارع.

صارعت القبيلة فى العصور المادية ومازالت الدول تصارع من أجل السيادة والسيطرة أو من أجل الاستغلال الاقتصادى ، نظام قائم على الفروق التى تولد الصراع.

إذا انتشرت الليبرالية والديمقراطية ، وانتشرت مكارم الأخلاق بين الناس وانتهت إلى حد ما الضغينة والحقد والكره والتنافس بين الأفراد وبين الجماعات، وخف تأثير الثيموس والحماسة الزائدة والزود عن كبرياء لا يعنى شيئاً إلا لصاحبه، فسوف تتحول سنوات عمر الإنسان إلى عبء ممل وسأم كئيب، ولسوء حظ الإنسان سيتقدم عمره أيضاً بتقدم علوم الطب والجراحة ، أى ستطول معاناة الإنسان من رتابة الحياة حتى وإن لازمتها السكينة والعيش بدون صراع أو نزاع. . لن تستقر الحياة الكونية كما تخيلها نيتشه أو هيجل أو الفلاسفة المثاليين ، بأن يسود الإنسان القوى أو أن تستقر الحياة المثالية من التعاون المتبادل بين الدول وبعضها أو بين الفرد والآخرين. . من الأرجح أن يتأرجح الخط العام المستقبلى للتاريخ ما بين سيادة الأسياد وثورات العبيد، مع وجود السيد العبد على مدى الزمان، ينتهز الفرصة للصعود، ولكن سيواجه مقاومة من كل من السيد والعبد، فالسيد لا يطيقه لأنه يعتقد أن هذا السيد العبد مازال بداخله طباع العبيد، كما أن العبد لن يأمن له. . لن يزداد مقدار التأرجح فقد كابد وعانى العنصر البشرى كثيراً من ويلات الحروب وويلات الثورات الدموية. . سيستمر الخط المستقبلى للتاريخ فى نفس الاتجاه ولن تحدث الدورة الكونية إلا بوقوع كارثة على الأرض أو تأثير خارجى من الفضاء الكونى.

السيد العبد هو الإنسان المستبد الطاغية (Tyrant) الذى يعامل رعاياه كالعبيد، وتعريف الاستبداد هو خضوع المواطنين للحاكم بإرادتهم ، لأنهم عبيد بالطبيعة كما ذهب أرسطو فى تعريفه للاستبداد ، والفرق بين المستبد والطاغية هو أن المستبد ذلك الإنسان الذى ينفرد برأيه، لا يؤمن بالديمقراطية أو بالشورى، قد يصبو من استبداده صالح الرعية ولكن غالبا ما يتحول الاستبداد إلى طغيان. . أما الطاغية فهو الإنسان المسرف فى الظلم والعدوان، يفتك بالرعية ويستعبدها.

السيد العبد هو الإنسان الذى ينشد عملية التوافق (Accommodation) يساوم ويفاوض، ويتطلع إلى التسامح، تختلف المساومة (Bargaining) عن المفاوضة (Negotiation) ، فهدف المساوم هو الحصول على أكبر مكسب ممكن من الصفقة

التى يتعامل معها، يبخس من قدر الطرف الآخر حتى يكبده أكبر خسارة ممكنة، فطباع المساوم أقرب لطباع العبيد فهو ينتهز الفرص لنيل غرضه، أما التفاوض فهو الأسلوب المتحضر لتسوية أى خلاف بين طرفين، والمفاوض السوى المعتدل هو الذى يتحرك فى منتصف المسافة، ولكن قد يتصف المفاوض بصفات الأسياد بكونه قوياً متشبثاً برأيه يريد أن يملى شروطه على الطرف الآخر، أو قد يكون له طباع العبيد، سهل الانقياد والاستسلام أو خادع مكير.

السيد العبد هو الإنسان النفعى الوصولى؟ الذى ينافق ويداهن، يتظاهر بصفات ليست فيه، يسلك كل الطرق للوصول إلى أهدافه، من رياء وخديعة، يتنازل عن كرامته فى سبيل مكسب مادى، أى يسلك مسلك العبيد حتى يحصل على مراده ثم يتحول هذا العبد إلى طاغية مستبد، لا يهمه إلا مصلحته الخاصة.

السيد العبد هذا الإنسان الذى يعيش فى عصر العولمة، واقتصاديات السوق، يعمل فى شركات عملاقة متعددة الجنسيات، عصر يتحكم فيه اتحاد رجال الأعمال مع رجال الإعلام، عصر سوف تنتهى فيه علوم الفلسفة والفن الرفيع، عصر يستطيع الفرد فيه أن يدير استثماراته من منزله أو مكتبه من خلال جهاز كمبيوتر، عصر سهل الحصول فيه على المعلومات، وسائل الاتصالات والمواصلات فيه مريحة وسريعة، يستطيع التنقل من بلد إلى آخر فى زمن قصير، عصر من السهل فيه للإنسان أن يصعد ومن الأسهل أن ينهار، نظام جديد مادى يتحكم فيه نظم عملاقة، جديدة وبعيدة عن ثقافاتنا الشرقية العتيقة.

عندما عاش الإنسان الأول منفرداً ، يشبع احتياجاته الأولية من قوة عضلاته فى صيد الحيوانات أوقطف الثمار والفواكه، لم يكن يعرف معنى الطغيان، فالطغيان يحتاج لأكثر من فرد (سيد وعبد). نشأ الطغيان عندما اكتشف هذا الإنسان الأول فروق القوى الجسدية لأفراد جنسه البشرى، فما يستطيعه إنسان من القيام بأعمال مثل صراع حيوان مفترس وهزيمته قد لايمكن آخر القيام به.. لما استخدم الإنسان الأول عقله مع قوى جسده، أيقن البعض إمكانية استخدام البعض الآخر أو سلب ما قد اصطادوه أو الطو على مأوى استغرق منهم أياماً ليتم تجهيزه.. عاش الإنسان الأول فى ظل ظواهر طبيعية مثل البرق والرعد والزلازل ، لم يستطع بتفكيره المحدود إيجاد تفسير لها، كما رأى الموت فى أقرانه ، ولم يستطع الإجابة على أسئلة كثيرة راودته.

لماذا حدث هذا التغير من حركة وحيوية إلى سكون وعدم ؟

هل هذه هى النهاية أم سيكمل الإنسان الساكن مسيرته بعد فترة من الزمن؟!

وأسئلة أخرى كثيرة مرت بخاطره لم يجد لها إجابة.. فتفتق ذهن ألمعى.. مقارنة لأقرانه فى ذلك الوقت - بفكرة الإلة القوى بل والأقوى من البشر، الذى يستطيع القيام بكل هذه الأعمال من موت إلى رعد وبرق، ثم وجد الإنسان الأول أن بعض هذه الأعمال تعود بالنفع له مثل شروق الشمس، وظهور القمر، وهطول الأمطار وبعض أعمال أخرى تضره مثل الموت والصواعق والفيضانات ، فسمى الأولى خيراً والثانية شراً ، وتعددت الآلهة، إله للخير وإله للشر، بل خلق الإنسان الأول بتفكيره إلة لكل ظاهرة من الظواهر الطبيعية التى شاهدها ولم يجد لها تفسيراً.

استغل بعض البشر فى العهود التاريخية الأولى فكرة الآلهة فى ربط طغيانهم واستعبادهم للضعفاء عندما ثار بعض العبيد الذين استعبدهم السيد القوى، وصبغ الاستعباد بصبغة دينية استمد منها الإنسان القوى قوى أخرى أعلى من قوته المحدودة، هذه هى القوى الغيبية وقوى ظواهر الطبيعة التى لم يجد لها عامة البشر

أى تفسير، ومن هنا ظهر الحكم الثيوقراطى (Theocracy) أى الحكم الدينى أو الحكم الكهنوتى.

تساءل د. إمام عبدالفتاح وأجاب عن سؤاله فى كتاب الطاغية: « كيف نتصور إرادتين من طبيعة بشرية واحدة ليستا على درجة واحدة، بل أحدهما تعلو على الأخرى؟ أبسط وأسرع إجابة هى: لا بد أن يكون الحكام من طبيعة غير طبيعة البشر، هكذا تصور القدماء الحاكم من طبيعة إلهية، فهو إله على الأرض أو هو ابن الإله. ومن هنا جاء سمو إرادته ، فهى سامية لأنها إرادة إلهية عليا، ثم تدرج الأمر بعد ذلك إلى أن الله يختار الحاكم اختياراً مباشراً ليمارس السلطة باسمه على الأرض.. وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نقول أن التفكير قد اتجه أولاً إلى تأسيس السلطة على أساس إلهى، فقيل أن السلطة مصدرها الله يختار من يشاء لممارستها، ومادام الحاكم يستمد سلطته من مصدر علوى فهو يسمو على الطبيعة البشرية وبالتالى تسمو إرادته على إرادة المحكومين إذ هو منفذ للمشيئة الإلهية». لقد قامت الحضارات القديمة فى مصر وبابل وفارس والهند والصين بناء على نظرية السلطة الإلهية التى يحكم من خلالها الملك أو الامبراطور أو الفرعون. حتى لما غزا الأسكندر الأكبر الشرق تأله، وأفضى عليه كهنة مصر لقب (ابن الإله آمون).

المساواة هى حق الفرد فى أن يتساوى مع باقى أفراد المجتمع فى حقوقه وفى واجباته، أما الحرية فهى تعنى حرية الفرد من سيطرة الحكم فى الحقوق المدنية وفى الحقوق الدينية والحقوق السياسية.. تعنى الديمقراطية حق كل المواطنين فى المشاركة فى النشاط السياسى للدولة، فالديمقراطية هى حكم الشعب بالشعب إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

هل الديمقراطية الليبرالية هى الأصلح للمجتمع، ففى رأى الكاتب الأمريكى فوكوياما أنه ليس بالضرورى تعميم المناسب أو غير المناسب لكل المجتمعات طالما تختلف الثقافات :« إن الديمقراطية الليبرالية ليست بالضرورة أصلح نظام سياسى لحل الصراعات الاجتماعية، فقدرة الديمقراطية على حل الصراعات حلاً سلمياً

تكون فى أقوى حالاتها حين تكون هذه الصراعات بين ما يسمى - بجماعات المصالح - المتفقة فيما بينها سلفاً على القيم الأساسية أو قواعد اللعبة، وتكون الصراعات فى طبيعتها اقتصادية فى المقام الأول، غير أن ثمة أنواعاً أخرى من الصراعات غير الاقتصادية أصعب بكثير، وهى المتصلة بمسائل مثل المركز الاجتماعى الموروث أو الجنسية مما لايسهل على الديمقراطية حلها حلاً مرضيا». قد تفى الديمقراطية الليبرالية بمتطلبات مجتمع غربى ولكن المجتمع الشرقى القائم على كبير العائلة الذى له احترامه وتبجيله ، أو رئيس القبيلة الذين يدين له الجميع بالولاء والطاعة، قد لا تناسبه ديمقراطيات أو حريات الغرب، فالثقافة التى ترسخت على مدى آلاف السنين تفرض نوعاً من العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين الفرد وكبير العائلة أو كبير القبيلة الذى يقوم بدور السيد، أما باقى الأفراد فهم أقل منه سيادة أو مجرد عبيد. لقد أفرزت الثورات الاشتراكية فى الدول التى فى دور التطور طبقات جديدة مميزة ومراكز قوى، بالرغم من أن شعار هذه الثورات حيال قيامها: المساواة والحرية والديمقراطية والعدل والإخاء.. إلخ.. هرع الشعب وراء شعارات بدون وعى لمعانى هذه الشعارات بسبب التخلف والأمية، واستغلت الطبقة الحاكمة الجديدة جهل الشعب ورسوخ عبوديته القديمة فى كسب ميزات مادية ، أما القليل المثقف من أفراد الشعب الذى قاوم عدم تطبيق هذه الشعارات فكان مكانه إما فى السجن أو فى مستشفى الأمراض العقلية، فتحولت الثورات التقدمية إلى ديكتاتورية طاغية.

رفض الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو فى منتصف القرن الثامن عشر النظم الاستبدادية التى تفرض على البشر أن يكونوا عبيداً للحاكم المستبد، ونفى روسو أن يقوم الخضوع للحاكم على أساس الاتفاق، وكان منطقه أن الإنسان الذى يصبح عبداً لآخر لا يعطى نفسه بل يبيعها من أجل قوته أو حياته ، ولكن لا يوجد مقابل لأن يبيع الشعب نفسه للحاكم، فالحاكم أو الملك لا يوفر الطعام لشعبه، بل على العكس، فالحاكم أو الملك المستبد يستغل شعبه بالحصول على ماله وناتج مجهوده، ورأى روسو أن الإنسان الذى يتنازل عن حريته هو فى الواقع يتنازل عن إنسانيته، فلايمكن أن يوجد مقابل يعادل التنازل عن حرية الفرد، وينتهى روسو إلى أن حق

الاستعباد هو حق باطل من جميع الزوايا وبأى منطق. . لقد أورد روسو فى كتابه (العقد الاجتماعى) أن الاتفاق السليم يقوم على موافقة جميع الإرادات الحرة لكل أفراد الشعب بحيث يكون الالتزام الاجتماعى للفرد داخل الجماعة التزاما حراً ونابعاً من الذات. . كما حذر رسو من طغيان الأغلبية للأقلية الضعيفة التى قد لا تملك من أمرها شيئاً، فقد تتحول ديمقراطية الأغلبية إلى سلطة مطلقة تطبقها على الأقلية، وتصبح إرادة المجموع هى إرادة الأغلبية وليست إرادة الكل.

فى تعريف روسو للحرية كما ورد فى كتاب «الطاغية» للدكتور إمام عبدالفتاح: « لا تعتمد الحرية على أن يفعل الفرد مايريد بإرادته الخاصة بقدر ما تعتمد على ألا يخضع لإرادة شخص آخر. . أو على عدم خضوع الآخرين لإرادته الخاصة، والحرية دون العدالة هى تناقض حقيقى، فلا حرية بغير قوانين، ولا حرية عندما يكون أى شخص فوق القانون. والشعب الحر يطيع ، لكنه لا يخدم ، لديه قضاة ، لكن ليس فيه سادة ، هو لا يطيع شىء سوى القوانين، وبفضل قوة القوانين فإنه لا يطيع البشر، إن الإنسان يكتسب من المجتمع المدنى الحرية الأخلاقية، وهى وحدها التى تجعل الإنسان سيد نفسه، ذلك لأن سلوك الإنسان لو حكمته الشهوة وحدها فهذه هى العبودية، فى حين أن الحرية هى طاعة القانون الذى نلزم به أنفسنا». دافع روسو نظريا عن الحرية الفردية ووجوب الالتزام بالقوانين ، ولكن من يضع القوانين، وبأى قيم وأى معايير وضعت، فالنسبية واردة، والهوى وارد، والتفسير متعدد ومختلف، ولن يوجد أبدا مجتمع يوتوبيا، هذه المدينة الفاضلة، إلا فى مخيلة وأحلام يقظة ضعاف البشر، والمصلحين الاجتماعيين الحالمين بالمستحيل.

وفقاً للنظام البشرى الذى يكمن داخله كل شىء من المتناقضات والتضاد فإن فى داخل الإنسان الفكر الديمقراطى الليبرالى وكذلك الفكر الديكتاتورى الشمولى، ويختار الفرد الاتجاه الذى يفى بمصالحه الشخصية ومدى استفادته من النظام القائم، ومن السهل على كثير من الأفراد أن يغيروا اتجاه فكرهم إذا لم يتم الاستفادة من متغيرات الأمور، فأول من مارس الانفتاح الاقتصادى فى مصر هم من نادوا بالاشتراكية فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، وأصبح الاشتراكى

الأول رجل الأعمال الأول، ومن مجد الاشتراكية والشيوعية تحول إلى التمجيد بالاقتصاد الحر والرأسمالية الغربية، ومن نادى بحقوق العمال أصبح يستغنى عنهم بعد أن أصبحوا عبئاً عليه.

إن الطاغية أو الديكتاتور يجب أن يكون له أتباع أوفياء يؤمنون بشرعية حكمه، نجد هذا الوفاء فى العصابات وفى الدول الديكتاتورية، ويقوم الطاغية أو الديكتاتور بتقسيم الأسلاب على اتباعه بنسب حسب مكانة كل فرد بحيث يرضى عنها الجميع ويظلون على ولائهم إلى المتحكم الأول.. قد يكون هؤلاء الأتباع من كبار قواد الجيش أو الشرطة أو من كبار السياسيين ورجال الإعلام أو من كبار رجال المال والاقتصاد، دائماً يوجد صفوة مميزة يرتكز عليها الطاغية ليسود ويطغى، وما أكثر النفوس الضعيفة وما أكثر الدناءة والخسة فى طباع البشر، وما أسهل عمليات غسيل المخ لضعاف الناس الذين لا يتحملون مسئولية أن يعيشوا أحراراً فينقادوا وراء طاغية أو ديكتاتور، يكفيه التحكم فى أرزاق الرعية، فتنهار معناوياتهم ويسهل استسلامهم، احتياجات أساسية نابعة من غرائز كامنة ويريد المرء إشباعها، يجمع الطاغية جميع هذه الاحتياجات فى يده من خلال معاونيه فيسهل قيادتهم واستعبادهم.

يعتبر الدستور القائم على الحرية والعدل وتعدد الأحزاب، بالنسبة للمستبد الطاغية ليس أكثر من مجال للفتن والخلافات والمشاحنات والاضطرابات الحزبية التى تعوق المستبد من الانفراد برأيه، ولو أن بعض المستبدين قد استغلوا الخلاف فى الرأى كذريعة لفرض الأحكام العرفية منعا لقيام الاضطرابات وتفشى العصيان، فشعارات مثل: المصلحة الوطنية، أو المصلحة القومية أو وحدة الوطن كافية لفرض النظام الديكتاتورى، وتكتمل سطوة الطاغين على الحكم بتعيين تابعين ملوثين بالفضائح المالية أو النسوية، فالمهم أن يكون ملف التابع أسود ملوث، يسهل التشهير به والتخلص منه عند اللزوم.

يمكن تلخيص الصفات العامة للطاغية، بأنه ذلك الإنسان الذى يهدف إلى المجد والشهرة، والمال والثروة، لا يهتم إلا بمتعه الشخصية ، يستخدم أفراد لا ضمير لهم، منافقين أو مرتزقة، يعطيهم مناصب كبيرة ورواتب عالية حتى يضمن ولاءهم له، لا يثق فى إنسان حتى أبناءه فيكثر من العيون والجواسيس تجمع له أخبار الرعايا وكبار رجال الدولة، لا يعترف بقانون أو دستور فى البلاد، إرادته هى القانون، ورغبته هى الدستور، يسخّر كل موارد البلاد لإشباع رغباته وملذاته، إنسان حاقد وظالم، فيه أسوء صفات السيد مع أسوأ صفات العبد، وأخيراً هو كما كتب الدكتور إمام عبدالفتاح فى كتابه "الطاغية" :« يقترب الطاغية من التأله، فهو يرهب الناس بالتعالى والتعاظم، ويذلهم بالقهر والقوة وسلب المال حتى لا يجدوا ملجأ إلا التزلف له وتملقه. وعوام الناس يختلط فى أذهانهم الإله المعبود والمستبدون من الحكام، ولهذا خلعوا على المستبد أو الطاغية صفات الله، كولى النعم ، والعظيم الشأن، والجليل القدر». وللأسف ارتبط الاستبداد والطغيان بالمجتمع الشرقى ونظم دول الشرق الأوسط، والشرق الأدنى، وظلت هذه الفكرة فى أذهان الغرب منذ عصر أرسطو وأفلاطون حتى أيامنا الحالية ، والسؤال المحير هو: إلى متى سيظل الشرق يتسم بهذه الصفات؟ . . هل ستتغلب إرادة الإنسان الحر على ميراث تراث آلاف السنين، أم سيظل الإنسان الحر يحلم حتى ينتهى النظام البشرى؟

النفعية والوصولية :

ينتهج السيد العبد فلسفة نفعية وصولية ومادية. . إن كانت هذه الصفات قد وجدت داخل الإنسان بالفطرة إلا أن نيقولا ميكافيللى يعتبر رائد هذه الفلسفة التى سار على هداها كثير من البشر، سياسيين ورجال أعمال ومن عامة الناس. . إن فلسفة ميكافيللى الذى ولد عام ١٤٦٩بمدينة فلورنس فى إيطاليا ،تكاد تكون فلسفة سياسية خالصة فهو القائل: « ومن أراد أن ينشىء دولة، ويضع لها قوانين، فليفترض من بادئ الأمر أن الناس جميعاً أشرار، مستعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طويتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة لهذا العمل ، فإذا ما ظلت ميولهم الخبيثة مختفية إلى حين، فيجب أن يعزى اختفاءها إلى سبب غير معروف، ومن واجبنا أن نفترض

أنها لم تجد الظروف الملائمة للكشف عن نفسها، ولكن الزمن لن يعجزه الكشف عنها، والرغبة فى الاقتناء من الغرائز الفطرية فى واقع الأمر، والناس جميعاً يقتنون حين يستطيعون، ولهذا فإنهم يمدحون على ذلك ويلامون عليه، وإذا كان الأمر كذلك فإن الطريقة الوحيدة لجعل الناس قادرين على أن يعيشوا بنظام فى مجتمع هى أن يطبق عليهم القسر والخداع، ومن هذا تنشأ الدولة تنظيم القوة على يد الجيش والشرطة، ووضع القواعد والقوانين، وتكوين العادات تدريجياً للاحتفاظ بالزعامة والنظام فى الجماعة البشرية، وكلما كانت الدولة أكثر نماءً قلت الحاجة إلى استخدام القوة أو ظهورها فيها، واكتفى بدلا منها بالتعليم وغرس العادات ، لأن الناس يكونون فى يدى المشرع أو الحاكم القدير أشبه بالصلصال اللين فى يدى المثال».

يتكمل ميكافيللى فلسفته باستخدام الدين كأداه للتشريع وللسيطرة على الحكم، فيقول: « لم يوجد قط مشرع عظيم لم يلجأ إلى القوى الإلهية، واتباع الأنظمة الدينية هو سبب عظمة الجمهوريات، وإهمال هذه النظم يؤدى إلى خراب الدول، ذلك أنه إذا انعدم من بلد ماخوف الله قضى على هذه البلد لا محالة، إلا إذا دعمه خوف الأمير، وهو خوف يمكن أن يعوض فترة من الزمن ما ينقص هذه البلد من خشية الله، لكن حياة الأمراء قصيرة . . وإذا أراد الأمراء أن يبقوا على أنفسهم وجب عليهم قبل كل شىء أن يحافظوا على نقاء الشعائر الدينية، وأن ينظروا إليها بالاحترام اللائق بها» . . ذهب الكاتب ول ديورانت فى موسوعته "قصة الحضارة" ، أنه بعد أن ارتضى ميكافيللى الدين بوجه عام انتقد الأديان التى تدعو الناس الخنوع إلى الضربات طمعاً فى دخول الجنة بدل أن يردوا عليها بمثلها.

يرى ميكافيللى أن سلامة الشعب أو الدولة هى القانون الأعلى: « وحيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنا وخيرها، وجب علينا ألا نقبل البحث فى العدل أو الظلم، والرحمة أو القسوة، وما هو خليق بالثناء أو الازدراء، بل يجب أن نسلك كل سبيل ينقذ حياة الأمة وحريتها، وننحى كل ما عدا هذا جانباً، ذلك أن الأخلاق بوجه عام إن هى إلا قانون للسلوك وضع لأفراد المجتمع أو الدولة لحفظ النظام الجماعى، والوحدة، والقوة، وأن حكومة تلك الدولة لتعجز عن أداء واجبها إذا كانت وهى

تدافع عن الدولة تسمح بأن تقيد نفسها بالقانون الأخلاقى الذى يجب عليها أن تغرسه فى نفوس شعبها. . ومن ثم فإن الدبلوماسى غير مقيد بالقانون الأخلاقى الذى يتقيد به شعبه، فإذا ما أدانه عمل قام به وجب أن تغفر له نتيجة هذا العمل ذنبه- **ذلك أن الغاية تبرر الوسيلة** . . وما من رجل صالح يلوم رجلاً غيره يحاول أن يدافع عن بلاده، أياً كانت السبل التى يسلكها لهذا الدفاع - فضروب الغش، والقسوة، والجرائم التى يرتكبها الرجل فى سبيل الاحتفاظ بدولته كلها غش شريف، وجرائم مجيدة ، ومن ثم فإن رميولوس كان على حق حين قتل أخاه، لأن الحكومة الناشئة كانت تتطلب الوحدة،·وإلا مزقت إرباً، وليس ثمة قانون طبيعى أو حق متفق عليه من الناس جميعاً، والسياسة إذا قصد بها فن الحكم يجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالاً تاماً».

سرد ميكافيللى فى كتابه الأمير كثيراً من النصائح لأميره لتعينه على الحكم: «واجب الأمير أن يفرق فى قوة وحزم بين المبادئ الأخلاقية ومطالب الحكم، أى بين ضميره الخاص والصالح العام، وأن يكون مستعداً لأن يعمل من أجل الدولة ما يسمى شراً فى علاقة الأفراد ببعضهم ببعض - ويجب عليه أن يزدرى أساليب التردد والضعف التى لا تبلغ الإنسان الغرض كاملاً، والأعداء الذين لا يستطيع كسب صداقتهم يجب القضاء عليهم، ومن واجب الأمير أن يقتل من ينازعونه عرشه. . ولابد له أن ينشىء جيشاً قوياً لأن الحاكم لا يستطيع أن يتحدث بصوت أعلى من صوت مدافعه، ومن واجبه أن يحافظ دائماً على صحة جنوده وحسن نظامهم، وعدتهم، وأن يعد نفسه للحرب بأن يعرض نفسه فى كثير من الأحيان للمخاطر، وعليه فى الوقت نفسه أن يدرس فنون الدبلوماسية، لأنه يستطيع أن يصل بالمكر والخداع فى بعض الأحيان بأكثر مما يستطيع أن يحصل عليه بالقوة، ويجب عليه ألا يتمسك بالمعاهدات إذا أصبحت تجلب الضرر للأمة، والسيد العاقل لا يستطيع ولا يجب عليه أن يحافظ على العهد إذا كان فى وسع أعدائه أن يتخذوا محافظته هذه سلاحاً لإيذائه. ولاغنى للأمير عن قسط من تأييد الشعب، ولكن إذا كان لابد للحاكم أن يختار بين أن يخافه شعبه دون أن يحبه، وبين أن يحبه دون أن يخافه

وجب عليه أن يضحى بالحب.. لكن حكم الجماهير بالرأفة والرحمة أسهل من حكمها بالغطرسة والقسوة.. ويجب ألا يهب الناس الحرية، ولكن من واجبه أن يمنعهم قدر المستطاع بمظاهر الحرية، وعلى الحاكم أن ينشر الدين وأن يظهر هو نفسه بمظهر الرجل المتدين أياً كانت عقائده الخاصة، والحق أن تظاهر الأمير بالفضيلة أهم وأفيد من أن يكون فاضلاً بحق.. إن تظاهر الأمير بالفضائل كلها نافع له وإن لم يكن من الضرورى أن يتصف بها، فعليه أن يتظاهر بأنه رحيم، وفى، شفيق، متدين، مخلص، ومما يفيده أيضاً أن يتصف بهذه الصفات، على أن يكون ذا عقل مرن يمكنه إذا دعته الحاجة من أن يتصف بعكسها، وعلى الإنسان أن يلون سلوكه، وأن يكون مرائياً لأن الناس سذج منهمكون فى حياتهم الحاضرة إلى حد يسهل معه خداعهم، وفى مقدور كل إنسان أن يرى مظهرك، ولكن قليل من الناس من يعرف حقيقة مخبرك، وأولئك النفر القلائل لا يجرؤن على مخالفة رأى الكثرة فيك».

لم يكن ميكافيللى هو أول من وضع أسس الفلسفة النفعية الوصولية، فالسيد العبد الذى ينتهج هذه الفلسفة تواجد، منذ قديم الزمن، وهذه الشخصية متواجدة فى جميع العصور، وفى النقاط التالية بعض مبادئ الفلسفة النفعية والوصولية، التى يعتنقها هذا الإنسان المتأرجح بين السيد والعبد:

- إن معظم الناس لا يتسمون بالطيبة وبناء عليه يجب أن نتعلم كيف لا نكون طيبون، ان الواقع العملى الفعلى للحياة يستلزم ألا يتمسك الإنسان ببعض الفضائل التى قد تدمره إن عاش بها، فكما يوجد الإنسان الطيب يوجد أيضاً الإنسان القاسى، الجشع، المتبد، الحقود، الفاسق، المتغطرس، فعلى الإنسان ألا يكون طيباً مع هذه الصفات السيئة، وكما ينصح ميكافيللى من أن اقتراف بعض الرذائل قد يؤدى إلى الأمن والاستقرار والنجاة من المهالك ففى قول اناتول فرانس «إن الأخلاق هى مجموعة أهواء المجتمع» أيضاً ذريعة لفلسفة الأخلاق كما نهوى وكما نحب أن تكون.

- يجب ألا يتعلم الإنسان أن يكون كريم سخى فالإسراف يؤدى إلى الإفلاس ومسك اليد بعد العطاء يؤدى إلى تمرد من تعود الأخذ كما أنه سيعانى من اتهام الناس له بالبخل والتقتير إذا قصر فى العطاء، يجب أن يتعلم الإنسان كيف ومتى ولمن يعطى وكيف ومتى ولمن يمسك، يجب أن يحسب المقابل للعطاء، أو كما ورد فى العلوم الاقتصادية الحديثة (حساب: الفائدة/ التكلفة).

- قد يؤدى الانفاق بغير حساب إلى السرقة أو الاختلاس للإنفاق على من تعود على كرمنا وإلا انفضوا من حولنا، المال قوة يجب الحفاظ عليها فمن الحكمة أن نعيش بصفة التقتير التى تسبب فخر وزهو أقل ولكن بدون عداء، على أن نعيش بصفة الكرم الزائد لإرضاء الناس والذى قد يؤدى إلى الفقر ومد اليد إلى الغير.

- يجب على الإنسان إلا يسىء استخدام الرحمة فقد تكون القسوة لازمة للإدارة وللتحكم فى البشر، وقد تؤدى الرحمة إلى الفوضى والعصيان.. يجب أن نعيش فى يقظة مستمرة ومن منطلق الاعتدال، لا رحمة دائمة ولا قسوة طوال الوقت، لا تعمينا الثقة بالنفس عن الحذر كما لا يعمينا الارتياب الزائد عن التسامح فى الحدود المقبولة .. يجب أن نعلم الآخرين أن يرهبونا ويحبونا فى نفس الوقت.

- للبشر طباع سيئة فطالما حققت لهم النفع فهم موالون لك وهم على استعداد أن يقدموا لك أموالهم وممتلكاتهم وحتى دمائهم وأولادهم يقدمونها إذا كانت لهم حاجة ماسة، ولكن أحذر فعندما تنقطع الحاجة إليك ينقلبون عليك.. يجب أن يشعر الآخرين بفضلك الدائم عليهم وأنك تستطيع أن تمنح كما تستطيع أن تمنع.. يجب ألا نطمئن إلى معسول الكلام من الآخرين فطبيعة الإنسان النفاق، والإنسان المنافق هو إنسان ضعيف يقتلك بغدر ويغدر بك فى مقتل.

- يجب أن نتعلم فن المناورة ومهارة التلاعب بالآخرين والتلاعب بالألفاظ وكيف نلقى الخطب الجياشة التى تؤثر فى بسطاء الناس، ولتكن نصيحة فورتين دى فيليس أمام أعيننا :« نادراً ما ينصح بأن تواجه التحامل أو الثورة بالمثل، ولكن من

الأفضل أن تبدو وكأنك متفق تماماً معهم حتى تكسب الوقت لتحاربهم، على الإنسان أن يعرف كيف يبحر عكس الريح ويناور حتى تصبح الريح مواتية».

- نحن نصارع ونناور - نداهن ونجامل من أجل هدف المنفعة . . إن لكل شيء ثمن والإنسان أيضاً له ثمن، المهم أن نعرف كيف نساوم لتخفيض الثمن الذى ندفعه إلى أقل قدر ممكن وتصعيد الثمن الذى نقبله إلى أكبر قدر ممكن. . الحياة منفعة والذكى من يحصل على أكبر قدر من صافى المنفعة.

- يجب أن نتصرف تصرف الوحوش. . فى أن تكون كالأسد وكالثعلب فى آن واحد، الأسد فى قوته والثعلب فى دهائه. . فالثعلب يستطيع أن يحمى نفسه من الكمائن ولكن لا يستطيع أن يحمى نفسه من وحش كاسر يواجهه وجها لوجه، أما الأسد فيستطيع أن يصارع ويتغلب ولكنه لا يستطيع أن يتجنب الوقوع فى فخ الماكرين. .

- الإنسان فى أوقات ضعفه يصبح سهل المنال يمكن شراؤه بأبخس الأثمان. . يكون الإنسان ضعيفاً عندما تقرب مخزون طاقته النفسية والعصبية على الانتهاء ويحدث هذا النضوب بعد الدخول فى صراع داخلى أو خارجى. . عندما تتصارع المرأة أو الفتاة مع زوجها أو أهلها أو مع من تحبه، تستهلك معظم طاقاتها النفسية فى الصراع وحينئذ تصبح سهلة المنال بقليل من العاطفة والكلام المعسول، والرجل أيضاً تستطيع صيده فى لحظات ضعفه ونضوب طاقة بطاريته الانفعالية بقليل من المغريات. . تحين فرصة الضعف لتشترى الغالى بقليل من الثمن.

- الإنسان الذكى لا ينبغى له أن يحفل كثيراً بالوفاء عندما يكون الوفاء ضد مصالحه. . ليس كل الناس أوفياء، فلماذا نكون نحن الأوفياء، ولكن يجب أن نبرز التبريرات القوية ونقدم الذرائع المقبولة لنقض العهد حتى نظل أوفياء أمام الناس ويظهر الطرف الآخر بأنه السبب فى اضطرارنا إلى نقض ما تعهدنا به. . من السهل خداع الناس بالتظاهر والورع والتقوى وما أسهل رسم مسحة الإيمان على جباهنا والتقوى على وجوهنا. . ما أسهل التظاهر بالرحمة والإنسانية والإخلاص

والوفاء.. والله وحده يعمل ما فى سرائرنا. إن بعض الفلسفات الحديثة لم تعد تسمى الشر شراً ولكن تسميه عدم الخير وأصبح مسمى القسوة حزماً.. إنها كلمات نستطيع تلوينها حسب من نريد وحسب من نريد أن نقدمها له فالغاية تبرر الوسيلة.

- لكل شىء فى الوجود مقابل وكل شىء له ثمن مادى أو معنوى .. فالزوج يحب زوجته لإشباع رغبات وغرائز جنسية، والوالدان يحبان أولادهم لإشباع غرائز الأمومة/ الأبوة، والأولاد تنتظر الدعم المادى والمعنوى من الوالدين، الإيمان مقابل جنة الخلد، العلاقة بين الأصدقاء هى علاقة منفعة متبادلة وكذلك العلاقة بين الشعوب.. وياحبذا لو كان الميزان التجارى فى صالحنا فستكون المنفعة فى هذه الحالة لنا، من منا يرضى بالتعادل والتساوى، نحن بطبعنا شرهين، طماعين، نحب الانتصار، ونحب أن نحصل دائماً على الجزء الأكبر من الكعكة وليكن الفتات للآخرين.

التفاوض والتوافق :

يقضى الإنسان منذ طفولته فى حياة تلازمها التعاملات، بدءاً مع الوالدين والأخوة فى المنزل، ومروراً بالحياة الدراسية والعملية، فى الشارع وفى العمل، فى النادى الاجتماعى والثقافى والرياضى، فى الحزب السياسى ، فى الحرب وفى السلام، مساومات على عمليات بيع أو شراء، ومفاوضات من أجل تسوية خلاف. حياة مليئة بالشد والجذب، بالأخذ والعطاء، نظام أزلى منذ بدء الخليقة عندما ارتضى الإنسان الأول أن يعيش فى مجتمع مكون من ذاته وآخرين، ما دام يوجد آخر وجد الاختلاف ووجد أيضاً الصراع والتفاوض.

إذا كان الصراع ينبع من الاختلاف والتضاد فإن التفاوض هو عملية تقدم فيها الاقتراحات للوصول إلى اتفاق يحقق فيه المصلحة المشتركة فى الأمر الذى يتصارع عليه الأطراف.. إن التفاوض كحل لإنهاء الصراع يطبق فى الصراع البشرى بين الإنسان وذاته، أو الإنسان وإنسان آخر، أو بين الدول المختلفة، وفى جميع الأحوال من المفروض أن يتم من خلال عملية المفاوضات الوصول إلى اتفاق يرضى بدرجة ما

الطرفين أو الأطراف المعنية لإنهاء الصراع بصورة جذرية أو تنظيم بعض جوانب السلوك فى المستقبل أو تجميد الصراع لفترة محددة (هدنة).

يتجه المتصارع إلى التفاوض عندما يجد أنه يخسر فى عملية الصراع أو حتى إذا انتهى الصراع بفوزه فقد يتجاوز ما سيخسره الفائدة العائدة من الفوز والوصول إلى الهدف الذى يسعى إليه.. فالتفاوض هو فى الأساس عملية حساب أرباح وخسائر، إن تقدير أو تقييم الأرباح والخسائر هى عملية نسبية ، فبعض الناس تعطى وزن وقيمة كبيرة للأرباح أو الخسائر المادية والبعض الآخر يضع الكرامة والشرف فوق كل اعتبار وقد يكون لذة الفوز لمجرد الفوز هو هدف فى حد ذاته، المهم أن نعرف كيف نقيم وبأى ميزان نزن.

يعتبر التفاوض نوع آخر من أنواع الصراع، صراع للوصول إلى حل لمشكلة الاختلاف مع تحقيق أكبر مكسب ممكن أو أقل خسارة ممكنة، وبصفة عامة يمكن تجميع العوامل التى تؤثر فى عملية التفاوض فى ثلاثة محاور رئيسية:

١ - القوى المتاحة لدى المفاوضين :

تختلف طبيعة القوى من قوى عسكرية أو قوى اقتصادية أو قوى ضغط من أطراف أخرى خارجية.. المفاوض الذى يملك القوى يستطيع أن يفرض شروطه على المفاوض الأقل قوة.. ولكن القوة أيضاً نسبية، فمن لا يملك القوة قد يكون أيضاً قوياً فهو يملك قوة اليأس المدمر.. إن القاتل الهارب المحكوم عليه بالإعدام قد يمتلك قوة تدميرية نتيجة يأسه، والإرهاب أيضاً قد يكون نابع من عقيدة حق من وجهة نظر الإرهابى وخطأ من وجهة نظر المجتمع، أو نابع من يأس من يعلم أنه لن يخسر شيئاً إذا سجن أو قتل.. إن ممارسة القوة يعتبر جزءاً هاماً من مفاوضات البحث عن حلول مقبولة لدى الطرفين، ولكن مفهوم القوة فى المفاوضات يختلف عنها فى الصراع، فالمقصود هنا بالقوة قدرة إقناع الطرف الآخر بالحلول المطروحة والتى تعود علينا بالفائدة المرجوة من السير فى عملية المفاوضات، فيجب علينا أن نقنع الطرف الآخر بأن فى المفاوضات انتصاراً له، وبالفشل فى إتمامها سوف يخسر الكثير.

٢ - إتاحية المعلومات لدى المفاوضين :

تلعب المعلومات دوراً مؤثراً على مائدة المفاوضات، فحصول مصر على خرائط وصور قديمة لمنطقة طابا كان له الأثر فى سير المفاوضات، قد يكون للمفاوض الحق فيما يفاوض فيه ولكنه لا يملك الدليل فيضيع حقه، فلإثبات الحق وضع الإنسان القوانين التى تتطلب إثباتات مادية ومعلومات موثقة وصور مرئية أو مسموعة أو مقرونة بالادعاء. . تعتبر أيضاً إتاحية المعلومات عن المفاوضين أنفسهم من الأهمية إما للإقناع أو للابتزاز.

٣ - مهارة المفاوض :

لقد خسرنا نحن العرب كثيراً، نحن نملك القوة الاقتصادية فى البترول والمال ونملك المعلومات فى الوثائق ولكن لا نملك مهارة المفاوض الجيد. . لقد أصبح علم التفاوض علم أساسى فى إدارة الأعمال والعلاقات الدولية والسياسية، علم يتطلب دراسة كثير من العلوم الاجتماعية والنفسية وبحوث العمليات ونظم المعلومات، ليس المهم أن تكون القوى التى يملكها المفاوض حقيقة أو خادعة ولكن المهم هو كيف يساوم المفاوض بهذه القوى للوصول إلى مايريد. . فإذا كانت المهارة الفردية عامل مهم لفوز الفريق الرياضى فإن الخطط التى يضعها المدرب ومدير الفريق وكذلك دراسة احتمال تغيير الخطة الموضوعة مسبقاً حسب سير المباراة وتوقع الخطة التى يلعب بها الفريق المنافس لها الدور الأكبر فى الفوز. . يجب أن يتعلم المفاوض ثقافة الأطراف الأخرى من المفاوضين حتى يستطيع فهم ما يقولون فوسيلة الاتصال واجبة لإتمام عملية التفاوض. . ليس المفروض على المفاوض فقط أن يسمع أو يقرأ أو يرى ولكن يجب عليه أن يفهم ويعى ويحلل ما يسمعه وما يقرؤه وما يراه. . فقد تعنى كلمة فى ثقافة ما معنى مختلف عن المعنى المفهوم فى ثقافة أخرى.

- تعتبر المفاوضات عملية اتصال وإقناع وإدراك لعناصر المسائل المعلقة محل التفاوض، ولما كان الإدراك نسبى يختلف باختلاف الثقافات المختلفة المتكونة عبر آلاف السنين من معتقدات وأديان وأساطير وطبيعة إنسانية وطبيعة مكان وزمان فقد

يختلف الإدراك لدى المتفاوضين على نفس العناصر، فإذا تعلمنا ثقافة المفاوض الخصم (أو بتعبير آخر أكثر تحضراً: المفاوض المقابل بدلاً من المفاوض الخصم) نستطيع أن نقنعه بوجهة نظرنا من خلال المنظور الخاص به.

- أصبح فن التفاوض علم يدرس، له مذاهب ومدارس، له أصول واستراتيجيات. فى النقاط التالية يمكن تلخيص القواعد العامة لعملية التفاوض والاستراتيجيات التى يمكن اتباعها للوصول إلى أقصى فائدة للأطراف المتفاوضة فكلما كانت الفائدة عامة على الجميع كلما كانت النتيجة التفاوضية ثابتة وراسخة وطويلة المدى وسريع الوصول إليها.

- عدم الانفعال أثناء المفاوضات وخلق المناخ المناسب البعيد عن الغضب والخوف والعدوانية، قد يستلزم الأمر كسر استمرارية المفاوضات والذهاب إلى الشرفة - كما ينصح ويليام أورى خبير المفاوضات الأمريكى - من أجل راحة الأعصاب والسيطرة على الانفعال واستنشاق مزيد من الأوكسجين وبالتأكيد حساب الأرباح والخسائر فى حالتى نجاح أو فشل المفاوضات.

- تحرى الموضوعية فى حل المشاكل وتجريد الصراع من الصبغة الشخصية.

- تنمية مهارة الاستماع للأطراف الأخرى لتفريغ ما بداخلهم مما يؤدى إلى الراحة النفسية لهم بالإضافة إلى الحصول على أقصى قدر من المعلومات.

- توظيف الوقت لصالحنا، فيجب أن نتعلم متى نسرع فى عملية التفاوض ومتى نسوف ونتظاهر بعدم الاهتمام.

- تحديد نقاط القوة ونقاط الضعف لأنفسنا وللأطراف الأخرى على قدر إتاحية المعلومات الخاصة بهم.

- محاولة حفظ ماء الوجه للطرف الآخر وتقديم اقتراحاتنا كأنها نابعة منه ومتماشية مع قيمه ومفاهيمه.

- توسيع قاعدة الاختيارات وإتاحة أكثر من حل للمشكلة.

- إمكانية تغيير اتجاه المفاوضات لإحداث عنصر المفاجأة أو لإرباك المفاوض المقابل.

- التمويه عن التحركات وتسريب بعض الحقائق أو الإشاعات بطرق غير مباشرة لمعرفة رد فعل الأطراف الأخرى قبل الدخول فى عملية المفاوضات.

- تنويع وفد المفاوضات ليشمل الطيب والشرس، لكل منهما دور سيلعبه فى ملعب المفاوضات.

- تطبيق استراتجية الخطوة بخطوة إذا كانت الأطراف المتفاوضة لا تعرف بعضها البعض أو استراتيجية الضربة القاضية المفاجأة فى حالة تهاون وعدم تركيز الطرف المقابل.

- إمكانية إشراك طرف آخر محايد إذا وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود أو إذا حدث شد وجذب بين الأطراف المختلفة.

يختلف اتجاه المفاوض باختلاف شخصيته وثقافته وإيدلوچيته فيوجد المفاوض الإيجابى المتعاون، والمفاوض ذو الاتجاه التنافسى الذى تحركه دوافع الشهرة والأنانية، والمفاوض المخادع ، والمفاوض العدوانى، وأخيراً المفاوض المخاطر. . ولكن توجد شروط عامة يجب أن تتوافر فى المفاوض الماهر وهى:

- ذكاء عملى وقدرة على التفكير بوضوح تحت ضغوط المفاوضات أو الضغوط الشخصية الأخرى.

- قدرة على التعبير الشفوى.

- تكامل شخصى وصفاء ذهنى.

- قدرة على التعامل مع الاستفادة من المعلومات.

- القدرة على إدراك واستغلال القوة.

- التحلى بالصبر والثقة بالنفس.

- القدرة على الاحتمال الجسدى والعقلى لعملية المفاوضات.

يثار سؤال مهم أثناء المفاوضات وهى أى درجة من المخاطرة نتقبلها؟ بصورة عامة تختلف درجة تحمل المخاطرة تبعاً لشخصية المفاوض، ولكن قبول المخاطرة المحسوبة طبقاً لنظرية الاحتمالات يمكن أن تخفف القلق المصاحب لاتخاذ القرار المشمول بدرجة من المخاطرة، كما يمكن القول بصفة عامة أيضا أن السلوك التعاونى فى عملية المفاوضات يقل عند المفاوض الذى يتقبل درجة المخاطرة المرتفعة.

سرد ويليام أورى خبير التفاوض الأمريكى فى كتابه "فن المفاوضات" ، العوائق التى تقف عادة فى طريق الوصول إلى حل للمشكلة، فالمفاوض قد يلجأ إلى الأسلوب التقليدى للتفاوض وهو إما التمسك المتشدد بالرأى أو سهولة الاستسلام والسماح للطرف الآخر باستغلاله، ومن وجهة نظر خبير التفاوض أورى أنه يوجد خمسة عوائق شائعة تحول دول إنهاء التفاوض إيجابياً وهى:

١ - رد الفعل : فالإنسان كآله لرد الفعل، إذا تعرض لهجوم أو ضغوط فإنه من الطبيعى أن يقوم بهجوم مضاد، وذلك يساعد على تصاعد عمليات الفعل ورد الفعل التى تؤدى إلى خسارة لكل من الطرفين.

٢ - مشاعر الآخرين : تساعد المشاعر السلبية للمتفاوضين على خلق المناخ العدوانى والمواقف المتشددة، فبعض الناس يتعاملون مع الآخرين من مبدأ «إن لم أكن غالباً فأنا مغلوب» أو بمعنى آخر، «إن لم أكن سيداً فأنا عبد».

٣ - موقف الآخرين : إن تشبث أحد الطرفين برأيه فمحاولة الضغط على الطرف الآخر يخلق نوعاً من التحدى لدى الطرف الآخر، فتسير المفاوضات فى طريق مسدود.

٤ - عدم رضا الآخرين : قد يكون الحل الأمثل للمفاوضات لا يرضى مصالح أحد الطرفين، ويخشى أن يفقد ماء وجهه إن قبل هذا الحل، فيمضى فى طريق الرفض.

٥ – قوة الآخرين : إذا أظهر أحد الطرفين قوته فسوف يتولد شعور عدم جدوى المفاوضات من الطرف الآخر ، لذا يجب أن يشعر كل من الطرفين بمبدأ المساواة فى القوة.

نصح وليام أورى بأن على الأطراف المتفاوضة أن تتخطى الرفض، وتتعاون معاً لاختراق العوائق الخمسة السابق ذكرها، من الممكن أيضاً تغير السلوك العدوانى المتحجر، أو أسلوب الحيلة والخداع، إذا استطعنا أن نحلل شخصية الطرف المقابل وندرس دوافعه المستترة التى تقف وراء هجومه العدوانى، فعملية التفاوض يجب أن تثمر الفائدة والمكسب لجميع الأطراف، وليس لطرف واحد على حساب الأطراف الأخرى.

يستخدم علماء الاجتماع تعبير التوافق (Accommodation) للتعبير عن عملية التراضى أو الصلح بين الأطراف المتنافسة أو المتصارعة سواء كانوا أفراداً أو جماعات، يأخذ التوافق أشكال متعددة تتفق مع نوع العلاقة بين الأطراف المتنازعة من حيث تفوق إحداهما قوة أو نفوذاً، كما تتفق مع نوع الحضارة والثقافة الخاصة بأطراف النزاع، ويمكن حصر أشكال عملية التوافق فى النقاط الست التالية:

١ – الاستسلام (Yielding) :

ينتهى الصراع بالاستسلام إذا انتصر أحد الطرفين المتنازعين، فيخضع الطرف المهزوم لجميع شروط المنتصر، لتيقن المهزوم بأن الاستمرار فى الصراع سيؤدى حتماً إلى القضاء عليه، ويظهر الاستسلام فى العادة فى حالة الحروب المدمرة أو النزاع الدموى باستخدام الأسلحة المختلفة.

٢ – التقريب بين وجهات النظر (Compromise) :

عندما تتفاوت قوى النزاع تفاوتاً ملموساً، يكون من السهل أن ينتهى الصراع باستسلام الطرف الضعيف، أما إذا تقاربت القوى فمن الصعب أن ينتهى الصراع بسيادة أحد الأطراف على الآخر ، فيشعر الطرفين بعدم جدوى صراعه، وأن المصلحة المشتركة هى وقف الخسارة المستمرة والجهد الضائع فى الصراع مما يؤدى إلى

أن يتفق الطرفان، وفى هذه الحالة يلجأ طرفى النزاع إلى الصلح أو التوافق أو تقريب وجهات النظر عن طريق تنازل كل من الطرفين عن بعض أطماعه، أو طموحاتـه، أو ما يصبو إليه من الخوض فى النزاع، ويسود استخدام هذا الشكل من توافق فى المنازعات العمالية وفى المعاهدات الدولية وفى النزاع الأسرى. . وترتبط ممارسة عملية التقريب بين وجهات النظر على المساومة وذلك عن طريق محاولة كل من الطرفين أن تكون خسارته أقل من خسارة الطرف الأول.

٣ - الوساطة (Mediation) :

يوافق طرفى النزاع بقيام وسيط لوضع الحلول أو الاقتراحات لحل النزاع بطريقة سلمية، ويتجه الوسيط إلى استخدام مبدأ تقريب وجهات النظر، ولا تعتبر اقتراحات الوسيط ملزمة لطرفى النزاع.

٤ - التحكيم (Arbitration) :

فى هذا الشكل من العمليات التوفيقية يكون قرار التحكيم ملزم للأطراف المتنازعة ، ويتم اختيار هيئة التحكيم من أفراد غير متحيزين لأى من الطرفين، وتستخدم هذه الوسيلة فى المنازعات الدولية من خلال محكمة العدل الدولية فى لاهاى بهولندا، والتى أنشأتها عصبة الأمم عام ١٩٢٠ لحل الخلافات التى تقوم بين الدول.

٥ - التسامح (Toleration) :

بعد مرحلة طويلة ومريرة من الصراع دون أن يصل أى من طرفى النزاع إلى نتيجة حاسمة ، قد يتجه التفكير إلى الرغبة فى التوقف عن الصراع بالرغم من اقتناع كل طرف بأحقيته فيما يصارع فيه وأن الطرف الآخر ليس على صواب. هذا النوع من التوافق لا يتوافر فيه عادة حسن النية، ولكن يتم الصلح لوقف الخسارة المستمرة نتيجة للنزاع أو لتحقيق مصلحة مشتركة لا يتم الحصول عليها إلا عن طريق المصالحة وعودة السلام.

٦ – التبرير (Rationalization) :

يتم من خلال هذه الوسيلة إبراز معلومات جديدة عن موضوع الخلاف تعمل على إرضاء كل من طرفى النزاع، كتبرير لعملية التوافق، وأقرب مثال لهذا الشكل من التوافق هو ما يحاوله الموفقين بين الأديان السماوية بإبراز نقط التشابه بين العقائد المختلفة.

النظام العالمى الجديد :

بالرغم من تغلب الفكر الاقتصادى الحر بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وقيام الاتحاد الأوروبى، وقع كثير من دول العالم فى فخ العولمة التى تبنتها الحضارة الغربية وفرضتها بقوة الاقتصاد ورأس المال على دول فى دور التطور أو دون التطور، بدون حل لمشاكل الاستغناء على كثير من العمال بعد خصخصة الشركات الحكومية أو اندماج الشركات الخاصة. بالتأكيد الفكر العولمى والانفتاح الاقتصادى صحى ولكن لا توجد الضوابط الكافية أو مد يد العون إلى الدول المتخلفة حتى تنافس فى سوق يحكمه العمالقة فى مجالات سوق المال والتكنولجيا والصناعات المتقدمة. . قبل البدء فى تبنى العولمة كان من الحكمة أن تبدأ الحضارة الغربية المعتزة بريادتها فى تبنى الفكر الديمقراطى الليبرالى فى دول العالم التى يسودها الديكتاتورية والاستعباد، ثم تبدأ فى نشر الثقافة الغربية القائمة على الحرية والمساواة، وأخيراً تطرح فكر العولمة الاقتصادية والتجارية.

تختلف معايير التقييم عند الفرد كما تختلف عند الدول، قد تعرض قضيتين متماثلتين أمام قاضيين مختلفين فيحكم كل قاضى بحكم مختلف. وعوامل كثيرة تتدخل فى معايير التقييم، منها الثقافة (Culture) ، ومنها تراكم التجارب وكذلك الحالة النفسية التى يكون عليها الحكم أو المقيّم وقت التقييم أو وقت اتخاذ قرار الحكم. . عرف العالم الاجتماعى الأمريكى تايلور فى القرن التاسع عشر، المعنى العام لكلمة الثقافة ، بأنها ذلك المجموع المعقد والمتداخل والمكون من المعرفة، والعقيدة ، والفن، والأخلاقيات، والقانون، والعادات، وغيرها من القدرات

والتقاليد، كأسلوب العمل واللهو، وأدوات الإنتاج، وقواعد السلوك... إلخ، والتى يكتسبها الإنسان من خلال عضويته فى مجتمع معين.

فى العادة ينحاز الفرد لذاته فيضخم فى قدراته ومكانته، ثم ينحاز للأفراد الذين تجمعهم معه روابط مشتركة مثل القرابة أو الانتماء لاتجاه سياسى معين أو ثقافة معينة أو حتى نادى رياضى واحد.. كذلك الدول فهى تنحاز إلى مثيلاتها فى الأيدلوچية والثقافة والعقيدة، ومن هنا نشأت التكتلات والأحلاف مثل حلف الناتو، وجامعة الدول العربية، والمجموعة الأوروبية، ومجموعة أمريكا اللاتينية ومجموعة شرق آسيا، ويظهر داخل الدين الواحد نفس التكتلات فالأديان السماوية لها مذاهب وشيع والأديان الغير سماوية كثيرة لا تحصى.

تبدأ شرارة الصراع واندلاع الحرب من التباين فى التقييم عندما يرى كل من الطرفين أنهما على حق والآخر على باطل، إنه الأصح والآخر مخطأ، أفعاله هى الخير وأفعال الغير هى الشر، وينحاز كثير من المتفرجين إلى طرف من الأطراف ويغذى هذا الإنحياز شرارة الاندلاع، ويزداد البون ويتصاعد الحماس الذى يؤدى فى النهاية إما إلى الحرب أو إلى تحكيم قد يتنازل فيه كل طرف عن جزء من حقوقه.

فى الزمن الحالى وبعدما عانت دول كثيرة من جراء حروب ضروسة، قتل فيها الملايين من البشر وعانت شعوب من فاقة الحرمان والتشرد، اتجهت هذه الدول إلى تخفيف نعرة التعالى عند شعوبها، وأحسن مثال على ذلك هو تحول الشعب اليابانى المقاتل الذى كان يفخر بأجداده من المحاربين الساموراى إلى رجال أعمال، فتفوقت اليابان صناعياً واقتصادياً على دول أخرى انتصرت عليها فى الحرب العالمية الثانية، كذلك الدول الغربية فى أوروبا وشمال أمريكا، من انتصر ومن انهزم، نسيت أو تناست خصومتها السابقة وبدأت فى التعاون الاقتصادى فتفوقت وأخذت الريادة وغزت العالم كله اقتصادياً، وتحول الاستعمار الإمبريالى القديم من غزو الجيوش إلى غزو رأس المال، وبدلاً من أن ترسل الدول الاستعمارية السابقة أساطيل وجيوش لغزو دولة أخرى قد تقاوم وتكبد الغازى الكثير من الأرواح والعتاد والأموال، أصبح

الغزو من خلال جهاز آلى صغير هو الحاسب الآلى (الكمبيوتر) ، أرقام فى حسابات تجمع وتطرح ، ومعدلات صرف عملات ترتفع وتنخفض ، شراء وبيع أسهم وسندات فى البورصات، يغذون روح تضخيم الذات عند دول جنوب شرق آسيا ويطلقون عليهم أسماء النمور الآسيوية، ثم تنهار هذه النمور وتتحول إلى قطط أليفة تلعق ما تبقى من كبريائها وكرامتها. . وقع الكثيرون فى فخ العولمة بالرغم من محاسنها ، ظن العديد من الدول أن اللعبة فى مصلحة الطرفين، فاستدانت الدول المتخلفة أو فى دور التطور ناسية أن أصول اللعبة كما وضع لوائحها الغرب تسمح للمستثمر الأجنبى بسحب استثماراته وتحويل أمواله فى أى وقت حتى وإن أدى هذا إلى انهيار الدولة المضيفة التى استقبلت رؤوس الأموال الأجنبية بصدر رحب ولكن بغباء تطبيقى، صور انبهارية من حضارة الغرب أنجذب العالم الثالث لها،نعم الديمقراطية مطلوبة والليبرالية أيضاً مستحبة ، ولكن من الخطورة إنشاء مبنى عالى الارتفاع من الاقتصاد الحر على أرض هشة وبدون أساس متين، سينهار المبنى إن لم تقم بدراسة التربة التى سيقام عليها المبنى قبل الإنشاء وسيقع البناء إن لم تكن الأساسات بالقوة بحيث تتحمل أحمال المبنى.

كانت قوانين منع الاحتكار فى الماضى السبب فى تفتيت شركة كبرى لتصنيع أجهزة الكمبيوتر فى الولايات المتحدة الأمريكية، أما الآن فقد اندمجت شركات كبرى فى مجال الطيران والقوى الكهربية والبترول والسيارات والاتصالات وخلافه لتقوى سياسة الاحتكار.

كتب ألمانيان يعملان فى مجال الصحافة كتاب باسم "فخ العولمة - الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية" حذر فيه المؤلفان من مغبة السوق العالمية الحرة واندماج الشركات العملاقة: « فى عام ١٩٩٦ ، زاد عدد الذين يبحثون عن فرصة عمل من غير جدوى فى بلدان منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى - OECD - على ٤٠ مليون مواطن، تقليص فرص العمل لم يعد يهدد العاملين فى المصارف وشركات التأمين فقط، بل أخذ يعم أيضاً العاملين فى شركات الاتصالات الهاتفية» . . أشار الكاتبين إلى ديكتاتورية رأس المال، فأصحاب رؤوس الأموال يضغطون على

الحكومات لتقديم تنازلات كثيرة فى الضرائب وقوانين العمل ملوحين بهروب رؤوس الأموال ، ومهددين بإمكانية حدوث انهيار اقتصادى فى الدول المضيفة . . إنها مصالح شركات دولية عملاقة تسيطر على معظم اقتصاد العالم فى زمان اتحا ت مصالح العمالقة الأسياد ضد الطبقة الوسطى من فنيين وموظفين وعمال، والسؤال الآن هو هل ستتحول هذه الطبقة أو حتى الدول النامية إلى عبيد بفضل السيد الاقتصادى الجديد؟!

تضخمت أنظمة الدولة الحديثة وأصبح الفرد جزءاً تافهاً من أنظمة وأنشطة متشابكة ومتفرعة داخل الدولة أو ممتدة خارج الدولة من خلال شركات متعددة الجنسيات ، وسفارات وقنصليات ومكاتب تمثيل، وتحول الإنسان الحديث فى الدول الديمقراطية إلى عبد للأغلبية، أما إذا كانت الدولة ديكتاتورية فإن الفرد يتحول إلى عبد للحاكم ومعاونيه وأجهزته الرقابية المتعددة.

لكى نكون منصفين يجب التسليم بأن اقتصاديات السوق والانفتاح الاقتصادى ورفع الحواجز والتشويه المصطنع (Economy Distortion) لآليات السوق له فوائد عظيمة إذا وضعت قواعد اللعبة بما فيها من مصلحة الشعوب المتخلفة، والدول النامية، كما تعود بالفائدة على الشعوب المتقدمة تكنولوچيا ، والدول ذات الناتج القومى المرتفع للفرد.

فالاقتصاد الحر يدفع المنتج إلى مراعاة الكيف بدلاً من الكم عن طريق التقنيات الحديثة ومراقبة الجودة (Quality Control) ، لقد عانى المستهلك فى البلاد الشيوعية والبلاد المتخلفة من سلع رديئة. . كانت سياسة هذه الدول إنتاج أكبر كم دون جودة وشكل يجذب المستهلك. بالرغم من انخفاض مستوى الأجور فإن تكلفة المنتج كانت مرتفعة فى البلاد المتخلفة أو النامية اقتصادياً كما يسميها البعض، ففاقد الإنتاج كثير، والعمولات والسرقة تلتهم جزء كبير من ميزانية الشركة، والسلع الراكدة تملىء المخازن ، كل هذه الأسباب كانت تؤدى بالتأكيد إلى ارتفاع تكلفة المنتج ما يصعب الدخول فى منافسة مع منتج جيد ذى تكلفة مقبولة تنتجه إحدى الشركات ذات الاسم المشهور والسمعة الطيبة.

من وجهة نظر أخرى فإن السوق الحر أو العولمة لها آثار سلبية على بعض النواحى الاجتماعية مثل زيادة البطالة التى تساعد على زيادة الانحراف بين طبقة العاطلين التى تجد نفسها فى فراغ وديون.

إن السلع الكثيرة المتنوعة، الرخيصة الثمن ، تبهر المستهلك وتغريه بالشراء ، كما أن سياسة الإغراق تمارسها دولاً كثيرة، والنتيجة بالطبع ليست فى صالح الدول النامية التى سيرتفع لديها حجم الاستهلاك والاستيراد ، مما سيؤدى إلى ميل ميزان مدفوعاتها إلى السالب. بالإضافة إلى ذلك فإن حتى فترة السماح المسموح بها للدول النامية لتوفيق أوضاعها وتغير لوائحها وقوانينها التجارية والمالية لن تكون كافية للتغيير التكنولوچى المطلوب فى مصانع قديمة ذات تكنولوچيات عتيقة، كما أن رأس المال المطلوب لتغيير الآلات وتحسين الهياكل المالية غير متاح للدول النامية، فيجئ دور المؤسسات والشركات المالية العملاقة كمنقذ ولكن بشروط لا تستطيع الدول المقترضة أن ترفضها، وحتى إن ساومت فإن الشروط لن تتحسن كثيراً.

يتنبأ بعض المتشائمين أو المتفائلين كلا حسب أيدلوچيته الرأسمالية أو الاشتراكية، أنه كنتيجة لتكتلات الشركات العملاقة متعددة الجنسيات والتى تستغنى على عدد كبير من العاملين بها، فإن النظام السياسى للدول سيواجه ضغط من القوى العاملة ومن العاطلين مما يؤدى إلى تدخل الدولة لمصلحة الطبقة الرأسمالية لقمع أى إضراب أو تذمر أو تمرد تقوم به النقابات العمالية أو من جهة أخرى أى تكتلات مهنية أو أفراد . . ومن المحتمل أن يتصاعد الموقف بقيام انتفاضات أو ثورات، ويتحول النظام الديمقراطى الحر إلى نظام شبه استبدادى، لتبدأ دورة أخرى لسيطرة طبقة مميزة على طبقة معدمة، مما يمهد إلى عودة نظام السيد والعبد مرة ثانية. . إذا كان تصور برجنيسكى المستشار السابق للأمن القومى الأمريكى أنه بخليط من التسلية المخدرة والتغذية الكافية يمكن تهدئة خواطر سكان كوكب الأرض، فالسؤال المطروح: إلى متى سيظل تأثير المخدر الإعلامى الغربى؟ . . لقد سيطر الإعلام الغربى وخاصة الإعلام الأمريكى على عقلية الجيل الجديد بالأخص خارج حدود الحضارة الغربية بنفس مستوى السيطرة على الفرد الذى يعيش داخل هذه الحضارة. . فانتشرت أفلام

ومـلـلات الجنس والعنف ، مما سيؤثر على الثقافات الشرقية على المدى الطويل، بل من السهل ملاحظة هذا التغير فى الوقت الحاضر فى أسلوب الحياة اليومية من ملبس ومأكل، وزيادة الميول العدوانية لدى الشباب، وتدنى العلاقة بين الوالدين والأبناء.

إذا تمثلت العبودية القديمة فى التحكم الجسدى، فالتحكم العقلى نوع آخر من عبودية العصر الحديث.. إن تضليل العقل البشرى من خلال أجهزة إعلام متاحة عالمياً ومباحة قانونياً، ومقبولة جماهيرياً، ما هى إلا أداة للاستعباد العقلى/ العاطفى- من طبقة مستفيدة مادياً وسياسياً - على جموع الجماهير الشعبية، وتستخدم الأساطير الشيقة أحيانا لإخفاء الجانب الدينى أو العقائدى فى برامج تليفزيونية أو مواضيع صحفية، ولضمان جذب القاعدة الجماهيرية لتوجيه خاص لفائدة طبقة معينة.. كتب الأمريكى هربرت شيللر، أستاذ مادة وسائل الاتصال فى كتابه "المتلاعبون بالعقول" :« تستخدم الأساطير من أجل هدف محدد هو السيطرة على الشعب ، وعندما يتم إدخالهم على نحو غير محسوس فى الوعى الشعبى، وهو ما يحدث بالفعل من خلال أجهزة الثقافة والإعلام، فإن قوة تأثيرها تتضاعف من حيث أن الأفراد يظلون غير واعين بأنه قد تم تضليلهم، وفضلاً عن ذلك فإن عملية السيطرة تصبح أكثر فاعلية من خلال الشكل الخاص، الذى يجرى نقل الأسطورة من خلاله.. ذلك أن تقنية النقل يمكن أن تضيف بذاتها بعداً جديداً إلى العملية التضليلية».

من السهل على وسائل الإعلام المتعددة، الحديثة والمتقدمة تكنولوجياً، تصعيد التوتر الناتج من وقوع أزمة سياسية أو دبلوماسية أو اقتصادية بين بلدان أو جماعات مختلفة، فتكرار العرض الإعلامى المركز مع التناول الهستيرى لموضوع الأزمة قد يتسبب فى رد فعل عدوانى من أطراف النزاع.. وينبع التوجيه التصاعدى فى العادة من التخطيط المسبق للاستفادة من وقوع الأزمة وخلق صدام كان من الميسر احتوائه إذا تضافرت جهود ذوى النوايا الطيبة.

إذا كانت للعولمة مزايا كثيرة من نشر الثقافات المختلفة والمعرفة الحديثة، إلا أن عقل الإنسان الحديث أصبح عبداً لموجهى السياسات الإعلامية الذين قد يستخدمون العلماء المتخصصين فى علمى النفس والاجتماع لتوجيه أو تضليل العقل البشرى.

وفى نهاية الألفية الثانية، ومع سيطرة الحضارة الغربية، تحولت معظم دول العالم إلى مجتمعات استهلاكية، تسيطر فيه وسائل الإعلام على عقول الأفراد، تغريهم بألذ أنواع الطعام والشراب، وتجذبهم إلى مجمعات سكنية فيها كل وسائل الراحة والخصوصية ، وتفرض عليه أذواق وألوان من الملابس والمفروشات، يستطيع المشاهد أن يرى العالم كله من خلال جهاز صغير داخل منزله، يرى مختلف الأماكن التى قرأ عنها ويتطلع إلى الذهاب إليها، لقد تحول الجهاز الإعلامى إلى نظام إعلانى يسيطر على فكر الإنسان وذوقه واختياره، هذا النظام تحركه شركات عملاقة ويوجه مقتضيات السوق، فأصبح إنسان القرن الواحد والعشرون خاضع للسيد الإعلامى/ الإعلانى الجديد. . وصف هربرت شيللر النظام الجديد فى الكلمات التالية: « على رغم أننا نميل دائماً إلى الاعتقاد بأن - أحرار الرجال - وجدوا فى زمن ما أو فى مناخ ما، فإن إخضاع وقهر أغلبية البشر هى القاعدة على مر العصور. . ولقد تم ذلك الإخضاع أو القهر بوسائل مختلفة حسب طابع كل مجتمع وحاله، أو مستوى فنون القمع والموارد المتاحة لهؤلاء الذين يسيطرون على الحكم. وكان الهدف الرئيسى بوجه عام هو الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من الناتج الاجتماعى للأقلية المتميزة، مع ترك ما يكفى لضمان استمرار قوة عمل الأغلبية الأقل حظا. . ولآلاف عديدة من السنين، ظلت الندرة، ومايصاحبها من إكراه بدنى، هو المنظم المعتمد فى الأغلب الأعم للسلوك الإنسانى. وفى القرون القليلة الماضية، وفى تزامن مع ظهور الصناعة الحديثة تطور نظام أكثر تعقيدا للسيطرة والإخضاع ، فلقد أتاح ظهور مجتمع السوق وضعاً اجتماعياً أكثر تحرراً ، إلا أن هذا الوضع أدى بالشعب العامل إلى أن يعتمد بصورة مطلقة على دخل هو عبارة عن أجر لعمل ليس الحصول عليه مكفولاً بصفة دائمة».

إذا كانت العبودية هى البديل لفقد المهزوم حياته فى العصور القديمة والعصور الوسطى، فهل الحروب الحالية هى بديل للاستعباد الذى ألغى قانوناً وانتهى اجتماعياً، لقد أحصى صامويل هنتنجتون فى كتابه "صدام الحضارات – إعادة صنع النظام العالمى"، عدد الصراعات الأثينية / السياسية فى عام ١٩٩٣/ ١٩٩٤ بخمسين، شاملاً صراع الحضارة الواحدة والصراع بين حضارتين، وبلغ عدد القتلى خلال السنوات الست الأولى من العقد الأخير للقرن العشرين حوالى اثنين ونصف مليون نسمة من دول مختلفة فى آسيا وأفريقيا ومنطقة البلقان، وقد نسب هنتنجتون هذه الحروب إلى الجذور التاريخية للخلافات بين الحضارات، والقوميات والأديان المختلفة، وأيضاً الصراع على الطاقة النفطية . مازالت تتواجد المخاوف والشعور بعدم الأمان بين أطراف النزاع، لقد عاشت الأطراف المتنازعة فى القرون الماضية فيما بين هدنة تفتقر للثقة، وعنف وحشى يصل لدرجة المجازر، فما غير الزمن ولا غيرت الحضارات من الضغائن الكامنة فى أعماق النفوس.

من المخطط حتى الآن أن يصبح العالم سوقاً واحدة، وستكون السلطة فى المستقبل فى أيدى مجموعة متحدة من رجال الأعمال، فمعظم دول العالم تهرول الآن نحو العولمة، وتتطلع الصين إلى جعل مدينة شنغهاى المركز الاقتصادى الأول فى قارة آسيا وأن تنافس بها نيويورك وفرانكفورت وطوكيو.. لقد أصبحت المعلومات متاحة لدى الجميع، فقد زاد عدد المشتركين فى شبكة الإنترنت العالمية عن مائة مليون.. لقد تحول العالم فعلاً إلى قرية صغيرة من خلال نظم اتصالات عالية التقنية ، ونظم معلومات حديثة ، وشبكات أقمار صناعية تغطى جميع بقاع كوكب الأرض.

فى نهاية العقد الأخير من الألفية الثانية انتهت الحرب الباردة والصراع الأيدلوجى بين الحضارة الغربية المكونة من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية والقائمة على النظام الديمقراطى الليبرالى الرأسمالى، والكتلة الشيوعية والتى كانت تحوى الاتحاد السوفيتى سابقاً وأوروبا الشرقية، وأصبحت الصراعات بين الجماعات الطائفية (حوالى ٢٣٣ مجموعة) والدول هى التحدى الذى يهدد الأمن المحلى

والدولى . . طبقاً للإحصائيات فإن حوالى بليون نسمة أى ما يقرب من سدس سكان العالم يتعرضون للضرر نتيجة للصراع الطائفى، لقد خرب الصراع دول البلقان أو ماكانت تسمى بيوغوسلافيا سابقاً، فقامت حروب مدمرة بين قوميات الصرب والكروات والبوسنة والهرسك، وكاد أن يمحى الصرب هوية شعب كوسافا إما عن طريق القتل أو الطرد. . ويحاول القوميون العرقيون (Ethnonationalists) فى كوبيك الفرنسية الانفصال عن كندا، وشمال إيطاليا يرغب فى الانفصال عن جنوبه، بعد أن تم انفصال أريتريا من أثيوبيا، بالرغم من أن اتفاقيات الحكم الذاتى قد ساعدت على إخماد ثورات الباسك والمورو والميكيتو فى نيكاراجوا، وناجاوتريبورا فى الهند، وبعض الثورات الأخرى فى منطقة عفار بأثيوبيا وتلال شيبتا جونج فى بنجلاديش، إلا أن هذه الاتفاقيات قد فشلت فى إنهاء الصراع الداخلى فى السودان وسيريلانكا.

أما منطقة الشرق الأوسط فتتركز الصراعات الطائفية فى المشكلة الفلسطينية والأقليات الكردية الموزعة بين بعض دول المنطقة فى تركيا وسوريا والعراق وإيران، بعد إنهاك الحرب الطائفية الشعب اللبنانى وأثر الاتفاق والسلام، قامت الصراعات بعد انهيار الاتحاد السوفيتى بين روسيا وبعض الجمهوريات المنفصلة. . لم تسلم أفريقيا أو دول جنوب شرق آسيا ودول أمريكا اللاتينية من ثورات الجماعات الطائفية، فخاضت هذه الجماعات صراعات دموية فى جنوب أفريقيا وزائير والفلبين وبورما وأندونيسيا واليمن والصومال وكوستاريكا وبنما والأكوادور. . قام البروفسير تيد روبرت جار بعمل دراسة شاملة عن صراع الأقليات فى كتابة "أقليات فى خطر ٢٣٠" شرح فيه نشأة الجماعات الطائفية: « وجدت الجماعات الطائفية تاريخياً قبل ظهور نظام الدول المعاصرة، وظلت فى معظم البلدان رغم سياسة الاستيعاب والإلحاق، تصر على البقاء وتعلو إلى الظهور حين يتم رسم الحدود الدولية، وتفتقد معظم الجماعات الطائفية لحالة التنظيم السياسى، مثل الصينيون فى ماليزيا وخليط العرب والكروات ومدن البوسنة المسلمة على أراضى الحدود الصربية الغربية. . فهم مشتتون ضمن شعوب أخرى، والجماعات الطائفية هى شعوب فى حالة تشوش

وضياع وإن كانت أكثر تماسكاً عن الجماعات المتجانسة ولكنها غير مترابطة سياسياً واجتماعياً. . والجماعات الطائفية من حيث الجوهر، هى تجمعات سيكولوچية ، حيث يتشارك أعضاء هذه الجماعات فى هوية متميزة وجماعية تقوم على سمات ثقافية ونمط حياة خاص بهم يميزهم عن الآخرين الذين يتفاعلون معهم، ويمتلك أى شعب أسساً ممكنة لهوية جماعية مشتركة مثل الخبرات التاريخية المشتركة، الأسطورة، المعتقدات الدينية، اللغة، الأصل العرقى، أقليم يقيمون فيه، وحرف تقليدية ونظم قبلية».

ماذا يحمل لنا القدر فى المستقبل، هل سيكون الصراع بسبب ندرة المياه العذبة، أم سيكون صراع حضارات كما نوه الكاتب الأمريكى صامويل هنتنجتون ، أم ستدور الرحى فى صراعات داخلية بين القوميات المتعددة أو الأديان المختلفة، من المؤكد أنه لن ينتهى الصراع إلا عن طريق التعديل الجينى، ومن المتوقع أن تكون جميع الأسباب السابق ذكرها أساساً للصراع، ومن المحتمل أن يعود السيد للتسيد ويخضع العبد للاستعباد، فالإنسان الحديث السيد العبد يحمل نطفتى السيادة والعبودية ومن الممكن أن تتكرر الدورة بشكلها القديم إذا انتهت الحضارات بصراعات فناء، ومن الممكن أيضاً أن يأخذ الاستعباد شكل آخر عن طريق الهندسة الوراثية.

نشطت فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، نتيجة لتفاوت المستوى الاقتصادى بين الدول، دخول غير قانونى لأعداد كثيرة من العمالة إلى دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا . . ساعد على انتشار هذا النشاط وجود عصابات منظمة تستولى على أموال هؤلاء العمال لمساعدتهم فى اجتياز حدود الدول المراد النزوح إليها، وفى كثير من الأحيان تترك هذه العصابات العمال فى سفن صغيرة فى عرض البحار والمحيطات أو فى صقيع شتاء قارص، عرضة للموت برداً أو غرقاً. . وقد تعرض لهذه المأساة الكاتبين الألمانيين هانس بيتر مارتين وهارالدشومان فى كتاب "فخ العولمة" : « فالمتاجرة بإدخال الراغبين فى النزوح على نحو غير شرعى، أصبحت تنافس اقتصاد السراديب المظلمة من حيث ما تدره من

عوائد. . فتهريب النازحين على نحو غير شرعى، وهو صيغة حديثة من صيغ المتاجرة بالرقيق، در بمفرده على بعض العصابات الصينية - Triaden - الناشطة فى الولايات المتحدة الأمريكية، أرباحاً تصل إلى ٢,٥ مليار دولار فى العام الواحد، بناء على تقدير إحدى الدوائر الحكومية الأمريكية».

انتهت الحرب الباردة التى عانى منها دول كثيرة كانت تسير فى ركاب الدولتين العظيمتين، وانتهى قبلها عهد الإمبراطوريات التى لا تغيب عنها الشمس، وتفاءل الجميع خيراً بمعيشة لا تحيط بها الحروب أو الأخطار، ومستقبل يسوده العدل، والمساواة، والحرية، واحترام الحياة، كما جاء فى نص تقرير لجنة "إدارة شئون المجتمع العالمى" عام ١٩٩٤: « نحن نؤمن بأن جميع البشر قد ولدوا متساوين فى حقهم فى الكرامة الإنسانية وأن من حقهم التمتع بحريات أساسية معينة : حرية تحديد هويتهم والتعبير عنها، واختيار شكل العبادة الخاصة بهم، والحصول على الرزق، والتحرر من الاضطهاد والقهر، وتلقى المعلومات. وتشمل الحريات الأساسية كذلك حرية الكلام، وحرية الصحافة وحق التصويت. ودون هذه الحريات، يصبح العالم ساحة للمعارك بين الأفراد والجماعات المتحاربة، يسعى فيها كل منهما لحماية مصالحه أو لفرض سلطته على الآخرين . . وتعتبر الحرية - بعد الحياة- أثمن ما يحرص الناس عليه ويقدرونه . . والحرية فى أكثر مفاهيمها ثراء، هى كل ما يمكن الناس من اختيار مسارات حياتهم، ولكى يصبحوا ما يستطيعون أن يكونوا عليه. . لكن حقوق الناس وأوجه استحقاقهم التى يتمتعون بها بالفعل عبر العالم تقصر بكثير عن تحقيق الحرية بهذا المعنى» . . ومضى أكثر من خمس سنوات على تقرير لجنة إدارة شئون المجتمع العالمى، فلا سادت المثل التى طالب بها المفكرين والمصلحين، ولا توقف النزاع، فقدر الإنسان أن يعيش فى صراع دائم وتباين مستمر.

تغير التوازن بين الإنسان والطبيعة كنتيجة للتقدم العلمى والاقتصادى فى العصر الحديث، كما أدت الزيادة الهائلة فى سكان كوكب الأرض الذين بلغوا حوالى ستة بلايين نسمة، إلى الشراهة المزعجة لاستهلاك الموارد الطبيعية، وتدمير النباتات

والحيوانات والبيئة بصفة عامة، فتحولت الأراضى الزراعية والغابات إلى صحراء ومساكن، ومن المحتمل أن يتسبب ارتفاع درجة حرارة كوكب الأرض إلى إذابة الغطاء الجليدى عند القطبين الشمالى والجنوبى، مما يؤدى إلى كوارث طبيعية لارتفاع مستوى مياه البحار وحدوث فيضانات وغمر مناطق عمرانية بالمياه.

تغيرت العلاقة بين الإنسان والطبيعة، لقد كان على أسلافنا أن يتقوا شر نزوات الطبيعة وتمردها، فأصبحت الطبيعة تعانى من رفاهية واستبداد الإنسان عليها.. تخضع الدول المتقدمة اقتصادياً وتكنولوچياً إلى مجتمعات إستهلاكية ، تقوم استراتيچيتها على إيجاد حجم طلب كبير عن طريق الدعاية والتجديد، وفتح أسواق خارجية، وخفض العمر الافتراضى للسلعة أى مدة بقاء السلعة.. اعتمد اقتصاد هذه الدول على الإنتاج لمجابهة حجم الطلب المتزايد، وتراكم كم هائل من النفايات وعوادم الاحتراق الكربونى، فامتلأ الهواء بمركبات الكربون والنيتروچين والرصاص.. كما أدى النقص الغذائى إلى تخريب الطبيعة باقتلاع ملايين من الأشجار من الغابات الطبيعية..

إذا كان التلوث العفنى ، والتخمر، والتكاثر الميكروبى، وغيرها من الملوثات التى تحدثها الطبيعة يعالج نفسه بنفسه نظراً لأن التقنية الذاتية للمياه بفضل أشعة الشمس سرعان ماتضع حد لتكاثر الجراثيم المسببة للأمراض فإن التلوث الكيميائى الحادث من نواتج الاحتراق، والنفايات النووية، والمعادن الثقيلة، والمساعدات الكيميائية التى تستخدم فى الزراعة، ومنظمات غير قابلة للتحلل البيولوچى، كل هذه السموم تؤثر على الإنسان عن طريق طعامه وشرابه واستنشاقه للهواء الملوث وملامسته للمواد الضارة.

يظهر التلوث الاجتماعى من أخطاء التنظيم الحضارى بقيام التجمعات البشرية المفرطة الكثافة التى تعكس أثارها على أشكال السلوك الفردى والجماعى.. اقترن التطور الصناعى والاقتصادى الحديث بظاهرة الهجرة الوافدة أو الموسمية والتى أدت إلى زيادة كثافة السكان فى بعض المناطق من دول العالم، كما أدى ارتفاع مستوى الدخل فى بلاد كثيرة إلى زيادة حجم النقل البشرى للعمل أو السياحة وكذلك حجم التجارة المتبادلة بين البلاد المختلفة.. كتب فى هذا الخصوص د. جان بيلت

الفرنسى، أستاذ البيولوچيا النباتية فى كتابه الحائز على الجائزة الأوروبية "عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة" : « أسفرت هذه الظواهر المتزامنة للتجمع والاتصال عن سلـلتين من النتائج المتناقضة فى ظاهرها، والتى يلقى عليها الضوء تحليل يستند إلى البيولوچيا» . . كانت أول هذه النتائج التى وردت فى كتابه دكتور بليت هى التأقلم باكتساب المناعة، حيث يحدث اعتياد يؤدى إلى اكتشاف الغير وتقبله والاعتراف بالحق فى الاختلاف واحترام نمط حياة الآخرين، وتعلم الإنسان التعايش السلمى، وتقبل التهجين الثقافى من الفئات المهاجرة إلى مجتمعه. . أما النقيض الآخر فهو يتمثل فى نشوء حساسية اجتماعية مرضية نتيجة لتكوين رد فعل نفسى مضاد نحو الواردين الجدد. . وينشأ رد الفعل طبقاً لدراسات اجتماعية، عندما تزيد أعداد جماعة سكانية غريبة عن المجتمع الكائن بنسبة (١٠-١٥٪) وتظهر هذه الظاهرة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث يقوم الصدام العنصرى نتيجة لمزج مجموعات متباينة الثقافة والمستوى الاقتصادى واللون والشكل، كما تظهر فى أوروبا كنتيجة لاستيراد أعداد كبيرة من الأيدى العاملة الرخصية من بلاد أخرى مختلفة الثقافة والعقيدة.

تنشأ ظواهر أخرى مماثلة كنتيجة للتركيز المفرط لجماعات سكانية متجانسة مما يؤدى إلى خفض المساحة التى يمكن أن تخصص لكل فرد. . كل هذه الظواهر السابق سردها والتى تظهر بالأخص فى المجتمعات المتقدمة صناعياً واقتصادياً تؤدى إلى زيادة السلوك العدوانى كما تؤدى إلى زيادة التلوث البيئى الذى يزيد بدوره من الميول العدوانية، واحتمال الصدام المستقبلى، والذى قد يؤدى إلى نشوب انتفاضات أو حروب إذا تدخلت أطراف أخرى لمناصرة أطراف النزاع.

أصبحت البشرية مهددة بالفناء الذاتى نتيجة للتلوث البيئى ، والانفجار السكانى الذى سيؤدى إلى زيادة الاحتباس الحرارى، وخفض حجم الموارد الطبيعية من نباتات وحيوانات ومياه عذبة، وهواء نقى، أى خفض الموارد اللازمة لمعيشة الإنسان. . كما سيؤدى زيادة السكان إلى حصر الفرد فى مساحة محدودة مما يزيد من السلوك العدوانى الذى يسرع من عملية اضمحلال الوجود البشرى من على كوكب

الأرض . . قد يتبقى أعداد قليلة من الجنس البشرى لتبدأ دورة جديدة، ويبدأ ظهور السيد والعبد مرة ثانية ، فأى شىء وارد فى فكر الإنسان قابل لنظرية الاحتمالات ، قد تتضائل نسبة الاحتمال ، ولكنه احتمال قائم.

لم تعهد دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة وكندا وبعض الدول الأسيوية ودول الخليج برفاهية مثل التى تعيشها الآن ومنذ ثلاثة عقود مضت . . ومع ذلك فإن رفاهية التكنولوچيا الحديثة والارتفاع المستمر فى مستوى معيشة الفرد لم تمنع الميول العدوانية لدى الأفراد . . فالارتفاع العام فى الدخل القومى لم يلغ الفوارق بين الفئات أو الطبقات الاجتماعية . . فإحباط النظرة التباينية والمقارنة مع الآخرين مازال مستمراً، ودافعاً لمزيد من العنف والسلوك العدوانى . . بل ان مجتمع الرفاهية أدى إلى وجود نسبة كبيرة من الغازات الحابسة للحرارة مثل ثانى أكسيد الكربون ، أكسيد النيتروچين والميثان وبخار الماء، والتى تتميز بامتصاص الحرارة الصادرة من سطح الأرض والاحتفاظ بها لفترات طويلة ثم تبثها مرة ثانية إلى الأرض التى أصبحت مثل الصوبة الحرارية (Green House) ، فمجتمعات الرفاهية قضت على مساحة كبيرة من الغابات الخضراء التى كانت تمتص ثانى أكسيد الكربون ، ولوثت الأنهار والبحار بالإضافة إلى تلوث الهواء.

فشلت سياسة انصهار القوميات والأديان فى بوتقة الوطن الواحد، فأى أقلية دينية فى بلد ما تنادى بالتكاتف والتجمع، وكل قومية مشتتة فى بلاد مختلفة مثل القومية الكردية تتطلع إلى الاتحاد، فكل الدلائل تشير إلى أن القرن العشرين كان قرن القوميات وعودة الأصولية الدينية خصوصاً بعد سقوط النظام الماركسى فى دول أوروبا الشرقية وتزايد النزاعات الدينية الإسلامية واليهودية فى دول الشرق الأوسط . . إذا ساد هذا الاتجاه العام مستقبلاً فسوف تتفتت دولا كثيرة ، قد يقوم نزاع داخلى بين القوميات أو الأديان المنفصلة وبين الوطن الأم، ولكن ستتيقن جميع الأطراف أن السلام والتعاون هما المصلحة المشتركة . . هل سيحدث تفتت آخر فى القومية الواحدة أو الدين الواحد فى المستقبل غير القريب . . احتمال وارد لبدء دورة جديدة من إنشاء نظام جديد فى صورة دول صغيرة تأخذ شكل القبيلة الكبيرة أو

الإمارة الصغيرة ولكن تحت حكم ديمقراطى ليبرالى لا يعترف بمركزية الدولة أو التخطيط الموجه.

ماذا ستجىء به الهندسة الوراثية إذا تغلب أنصار تعديل الصفات الوراثية عن طريق الجينات ، هل سيتحول الإنسان إلى إنسان نيتشه الأعظم (السوبرمان) ، أم سينقسم البشر إلى سادة تحكم وتستمتع ، وعبيد ذكور وإناث لخدمة وتسلية السيد الجديد، حتى يصبح المستقبل واقع سيظل الإنسان كما وصفه الفيلسوف شوبنهاور: «ذلك الحيوان المأساوى الذى ليس لديه من الغريزة ما يمكنه من التصرف بأمان، وليس لديه بعد من العقل ما يمكنه من تحمل غرائزه، والإنسان الكامل لا يتوقع وجوده إلا فى آفاق المستقبل البعيد، ويظل اليوم ذلك الكائن الناقص، الضائع بين الحيوانية والربانية، حبيس الغرائز العدوانية والتملكية التى ورثها عن أسلافه وضاعفها بسلاح معارفة».

استطاع الإنسان الحديث أن يتقى شر الطبيعة، بدرجة عالية بالنسبة إلى الماضى، وإذا اتحد الأفراد فى الأزمنة الغابرة وتعاونوا لصد خطر الطبيعة، فى وقت الخطر تنسى الضغينة والخلافات، استغل رجال السياسة هذا العرف فى طبيعة الإنسان باختلاق الأزمات والمخاطر الوهمية لكى يلهوا شعوبهم ويحولوا أنظارهم عن التنافس السياسى والمناداة بشعارات ضد القائمين بالحكم.. والآن وبعد أن تغلب الإنسان على تمرد الطبيعة، ورفع شعار براق "عالم واحد لجميع البشر" كيف وأين سيفرغ الإنسان شحنته الانفعالية، بالطبع يوجد إنسان آخر إن لم يستطع أن يستعبده بعد إلغاء الرق ، فعلى الأقل يستطيع أن يتغلب عليه، ويرتقى عنه بالمنافسة الشريفة أو غير الشريفة، مجال الصراع واسع ومتنوع ولن ينتهى ، وبعد أن انتهى النظام القبلى أو الاجتماعى الذى كان يضمن التكافل لجميع أعضاء القبيلة أو الجماعة، وأصبح الإنسان وحيداً منعزلاً مع أسرته أو حتى وحيداً داخل أسرته، فإن الصراع أصبح مؤلماً نفسياً بعد ما كان الإيلام بدنى ومادى، حاول الإنسان الحديث أن ينتمى إلى أحزاب سياسية وتجمعات ثقافية وفنية وأندية رياضية واجتماعية، ولكن رتم

الحياة الحديثة، والهموم الشخصية للفرد حد من نظام التضامن والتآذر والإخاء والترابط الاجتماعى، أصبح الإنسان حراً ولكن وحيداً.

قال وليام جيمس: « إن من أشد أنواع الأذى أن تبقى وحيداً، فالحبس الانفرادى من أمقت أنواع التعذيب التى ينبغى أن تنهى عنها الإنسانية الحديثة». . إن معيشة الفرد فى مجتمع هى غريزة فطرية بالإضافة إلى الفوائد المادية الأخرى من تعاون، وتقسيم عمل، وتطوير أنظمة من أجل الرقى، وتوفير جهد ووقت. طالما تثير الإنسان غرائزه، وتسيره موروثاته، ويجذبه مجتمع مكون من آخرين بجانب فرديته، فسيظل قائما نظام السيد والعبد، والسيد العبد بصور مختلفة، وتسميات منقحة، تواكب التطور الطبيعى فى مسار التاريخ.

obeikandl.com

obeikandl.com

خاتمة

يختلف الإنسان عن الكائنات الأخرى بتباين ملموس فى أنماط سلوكه وفى شكله العام بالرغم من التشابه الفسيولوچى، فاختلف لون البشرة من الأبيض المائل للحمرة إلى الأسود الداكن الأبنوسى مع جميع درجات اللون التى تقع بينهما، واختلف شكل العينين ولونهما، واختلف طول الإنسان وحجمه ولغته.. كما تنوعت العادات والتقاليد والأذواق فى المأكل والمسكن أى الثقافة بصفة عامة، فحتى مع بداية الألفية الثالثة ما زال يوجد من البدو من يعيش فى خيام ومازال من الأسكيمو من يعيش فى منازل ثلجية ، أنف البعض من أكل الكلاب والخيول وتلذذ آخرون من مذاقها، غطى البعض جميع أجزاء جسمه بينما عاش آخرون فى مستعمرات عراة، زينة النساء وحليها تغيرت مع الزمان ومع المكان ، فكل شعب له ثقافة خاصة فى زينته تتغير على مر العصور، فتشبه بعض الرجال بالنساء، وقلدت بعض النساء الرجال فى ملبسهم وتصرفاتهم.. اختلف تأثير الغرائز الفطرية والعواطف المركبة من إنسان لآخر.. فاشتدت بعضها فى إنسان وخفت البعض فى إنسان آخر.. إذ كان سلوك الإنسان دالة فى غرائز موروثة وتراكم تجارب مكتسبة من البيئة، فالسلوك أيضاً تباين باختلاف التجارب التى يكتسبها الإنسان على مر رحلته الحياتية، وسط كل هذا التضاد والتباين فى نظام كونى قائم على الاختلاف والصراع، وجد إنسان ذو طبيعية سيادية سمى بالسيد، ووجد أيضاً إنسان له طبيعة العبد، قام صراع أبدى بين الإنسان وقرينه ينتهى غالباً بموت طرف أو طرفى النزاع أو تسيد طرف على الآخر.. استسلم العبد غالباً وتمرد أحياناً، وانتهى المطاف بإلغاء الرق قانوناً وممارسة، ولكن مع وجود كل من طبيعة السيد وطبيعة العبد داخل الإنسان وجد الإنسان الحديث: السيد العبد.

ارتبط نظام العبودية منذ العصور القديمة بالحضارة، ومن السخرية أن يرتبط التطور والرقى فى الزراعة والصناعة، وفى العلوم والفلسفة، وفى الفنون والقانون،

بأحط نظام بشرى ابتدعه فرد أو جماعة، لإخضاع فرد آخر، أو السيطرة على جماعة أخرى.. ما أغلى حرية الإنسان التى تستحق أن يزود عنها ويحميها، حتى إن أدى ذلك إلى فقد حياته.. بدون الحرية يصبح الإنسان ذليل وحقير، لا يستحق الشفقة، بل مزيد من المهانة والذل طالما ارتضى أن يستسلم ويعيش وضيعاً وذليلاً.

ماذا حدث لكل من السيد والعبد فى هذا العصر بعد الحروب الكثيرة والطويلة التى عانى منها الإنسان، أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية، وحروب الشرق الأوسط بين الدول العربية وإسرائيل، وصراع الدين الواحد بين العراق وإيران، وصراع أبناء العم بين الكويت والعراق، وحروب دول البلقان فى البوسنة وكوسوفو، وصراع إيدلوجيات رأسمالية غربية وشيوعية روسية صينية، وصراع المعدمين فى رواندا وزائير والصومال وأثيوبيا وآرتيريا وغيرها من الدول الأفريقية التى تعانى المجاعة والأمراض، واستبداد حكام طغاه فى أمريكا اللاتينية وآسيا، وأفريقيا والشرق الأوسط والأدنى، ماذا حدث للإنسان بعد إلغاء الرق وتحرر العبيد.. فى هذا العصر الحديث حدث تقارب شبه التقائى بين السيد والعبد، أو بمعنى آخر بين صفات وسمات السيد والعبد، قد يحتاج هذا المدخل إلى بعض الشرح والتفسير.. لم يعد هناك عبيد بالمعنى القديم وأصبح جميع الناس حتى فى الدول التى يحكمها طغاة مستبدين، بحكم القانون أحراراً، فإذا حدث صدام وصراع أياً كان نوعه (جسدى/ قانونى / سياسى/ حرب نفسية / ...» بين اثنين فبالطبع سوف ينتصر الأقوى ، ولكن فلنفرض أن الاثنين متساوين فى القوة تقريباً، فإذا تمسك أى من المتصارعين بأخلاق وسمات الأسياد من شرف المنازلة والتعالى عن دسائس الصراع، فسوف يهزم فى حالة ميل الطرف الآخر إلى أخلاق العبيد المتسمة بالخسة والنذالة والأساليب الغير شريفة والغير أخلاقية، وعلى ذلك فسوف ينتهى السيد الارستقراطى التقليدى، ذو القيم النبيلة، والأخلاق الحميدة، أو بالأحرى نستطيع القول أنه انتهى ، فالسائد الآن هو الإنسان الحر الذى لديه صفات العبيد، ومن جهة أخرى فإن الإنسان بطبعه يميل إلى التفاخر والتباهى ، فقد ينسب الوضيع نفسه إلى الجد العاشر إذا وجد فيه رمق من المكانة والرفعة، وعليه فالإنسان المتسم بصفات

العبيد قد يتحلى ببعض مكارم الأخلاق من كرم وشرف ونزاهه حتى ولو كان هذا تظاهراً حتى ينسب نفسه إلى الأسياد.

وفى الخلاصة نستطيع القول أنه سيحدث التقارب التقائى أو شبه التقائى (Convergence) بين السيد والعبد أو بين ذوى صفات الأسياد وذوى صفات العبيد ليتكون إنسان جديد، لا هو سيد ولا هو عبد والذى نسميه فى هذا الكتاب بالسيد العبد، هذا الإنسان الذى يجمع بين كل من صفات السيد وصفات العبد.

نتمنى أن يسير النظام البشرى إلى الأفضل للإنسان بعيدا عن التطرف الذى يشعل ناراً من الصعب إخمادها بدون خسائر فادحة لجميع الأطراف، المنتصر والمنهزم، أما التغلب على ملل رتابة الحياة بخلق مشاكل لا تستحق أن تخلق فوسائل الترفيه البشرية كثيرة، والتكنولوجيا الحديثة فى عالم النقل والاتصالات تمكن الإنسان من السفر والترحال. . ومن مشاهدة ما قد لا يستطيع أن يتلمسه أو يعيش فيه، عن طريق شبكات اتصالات وأقمار صناعية، وقنوات تليفزيونية تغطى جميع أنحاء كوكب الأرض.

وفى هذا المجال نورد الفقرة التالية من كتاب "نهاية التاريخ" لفوكوياما مع تعديل بسيط بدون الإخلال بالمعنى: « قد أبى العبد فى مستهل التاريخ أن يخاطر بحياته فى معركة دامية، حيث أنه كان جباناً بالغريزة، أما خاتم البشر فى نهاية التاريخ، فيعلم جيدا أنه من العبث المخاطرة بحياته من أجل قضية حيث أنه يدرك أن التاريخ ملىء بالمعارك التى لم يكن ثمة مبرر لها، اقتتل فيها الناس حول ما الذى كان ينبغى على الإنسان أن يكون يهودياً أو مسيحياً أو مسلماً أو بغير دين سماوى، غربياً أو شرقياً، أبيض أو أسود، وقد أثبت التاريخ اللاحق أن الولاءات التى دفعت الإنسان إلى القيام بأعمال رهيبة ملؤها الشجاعة والتضحية هى مجرد تعصب أحمق».

ذهبت الفلسفات القديمة إلى أنه لكى تجرى مياه الأنهار من مكان إلى آخر فلابد من فرق فى المنسوب ، ولكى تتولد الطاقة الكهربية ويسرى التيار فلابد من فرق فى

الجهد، كذلك النظام البشرى فلكى يتطور ويتقدم فلابد من فروق فى الأفراد وفى الطبقات، ليتولد الألم الناتج من النظرة التفاضلية، وحافز المقارنة التى تدفع الإنسان إلى أعلى.. أما السياسات والثقافات الحديثة فتقوم بترويض حمية النعرة الأرستقراطية الكائنة فى أقصى خط السيد تطرفاً، عن طريق نشر فلسفة العولمة والفكر الاقتصادى الحر الذى تتبناه الحضارة الغربية الحديثة لترسخ كثقافة عامة فى فكر وعقل الإنسان الحديث.. إن الاتجاه السائد الآن هو فكر التقييم المادى الغالب على التقييم الإنسانى، وإذا تغلبت المادة على إنسانية الإنسان سيتحول البشر جميعاً إلى عبيد للسيد الجديد (المادة).

حتى لا يسير البشر وراء وهم الحرية، عملا بالقول الشائع "إن الحرية حق طبيعى يملكه الإنسان بحكم الطبيعة"، فواقعياً ومنطقياً يجب إضافة : "إذا عاش وحده" إلى نهاية الجملة فالإنسان حر إذا كان وحيداً حيث لا معنى للحرية، والإنسان مقيداً إذا ظهر فى النظام طرف آخر، طالما أن حرية فرد تقيد حرية آخر إذا وجدت علاقة ما بينهما ، أساسها المنفعة المتبادلة، فالنظام البشرى قائم على التملك والتعصب وعلى الأنانية الفردية، وعلى حب البقاء وحب الانتماء إلى مجتمع يستمد منه قوته ويبدد فيه ملله.. لا يمكن لهذا النظام أن يفرز حرية كاملة. إن النظام البشرى يحركه طبيعة خارجة عن قدرات البشر إلى حد كبير، وأيضاً تفاعل بين أفراده، لا يملك الفرد فى هذا النظام أن يمتلك الطبيعة أو يغير ظواهرها وقوانينها، أو يمتلك الآخر امتلاكاً كاملاً طالما الفرد يملك إنهاء حياته بالانتحار، ومنع الطرف الآخر من التمتع بلذة الانتصار والتملك.. نظام معقد جداً فى تفاصيل الميكانيزم الخاص به ، سهل جداً فى شمولية فلسفته إذا نظرنا إليه بمنظار مجرد على أنه نظام قائم على تضاد وتباين، وتفاعل بين عناصر لانهائية العدد، تسير طبقاً لمنظومة متكاملة يتبع منها نظامناً البشرى الذى نجهد فيه أنفسنا لتحليل مكوناته وتفاعلاته وفهم القليل من أساسياته وتوقع نهايته.

وفى النهاية يتبقى سؤال أخير : هل الإنسان الذى تحرر من نير عبودية إنسان آخر هو فعلاً حر الإرادة ؟! أم خلق الإنسان ليكون عبداً لقدره؟

قائمة المراجع

obeikandl.com

obeikandl.com

قائمة المراجع

١ - "بعيداً عن اليسار واليمين - مستقبل السياسات الراديكالية" - انطونى جيدنز- ترجمة شوقى جلال - عالم المعرفة - نوفمبر ٢٠٠٢.

٢ - "الجذور التاريخية للصراع العربى الإسرائيلى" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١.

٣ - "الكون - بداية .. نهاية" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر - ٢٠٠١.

٤ - "قدر الإنسان بين الصراع والسعادة" - د. محمد الجزار - مركز الكتاب للنشر- ٢٠٠١.

٥ - "المتلاعبون بالعقول - " هربرت شيللر - ترجمة عبدالسلام رضوان - عالم المعرفة - مارس ١٩٩٩.

٦ - " وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك فى مصر" - لطفى أحمد نصار - الهيئة العامة للكتاب - ١٩٩٩.

٧ - " صدام الحضارات " - صامويل هنتنجتون - ترجمة طلعت الشايب - سطور- ١٩٩٨.

٨ - "فخ العولمة" - هانس بيتر مارتين وهارالد شومان - ترجمة عدنان عباس على- عالم المعرفة - اكتوبر ١٩٩٨.

٩ - "الهندسة الوراثية - الأمل والألم" - عبدالباسط الجمل - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٨.

١٠- "عالم يفيض بسكانه" - روى كالن - ترجمة ليلى الجبالى - عالم المعرفة - سبتمبر ١٩٩٦.

١١- "الحرية" - جون ستيورات ميل - ترجمة طه السباعى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٦ .

١٢- " الصراع على القمة - مستقبل المنافسة الاقتصادية بين أمريكا واليابان" - لستر ثارو - ترجمة أحمد فؤاد بليغ - عالم المعرفة - ديسمبر ١٩٩٥ .

١٣- "جيران فى عالم واحد - نص تقرير إدارة شئون المجتمع العالمى" - عالم المعرفة - سبتمبر ١٩٩٥ .

١٤- "الفكر الشرقى القديم" - جون كولر - ترجمة كامل حسين - عالم المعرفة - يوليو ١٩٩٥ .

١٥- "أقليات فى خطر ٢٣٠٠" - تيد روبرت جار - ترجمة مجدى عبدالحكيم وسامية الشامى - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥ .

١٦- "المماليك فى مصر" - أنور زقلمة - مكتبة مدبولى - ١٩٩٥ .

١٧- "المقاومة بالحيلة - كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم" - جيمس سكوت - ترجمة إبراهيم العريس وميخائيل خورى - دار الساقى - بيروت ١٩٩٥ .

١٨- "عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة " - جان مارى بيلت - ترجمة السيد محمد نجاتى - عالم المعرفة - سبتمبر ١٩٩٤ .

١٩- "فن التفاوض" - ويليام أورى - ترجمة د. نيفين غراب - الدار الدولية للنشر والتوزيع - ١٩٩٤ .

٢٠- "الطاغية" - د. إمام عبدالفتاح إمام - عالم المعرفة - مارس ١٩٩٤ .

٢١- "العبودية" - موريس لانجليه - ترجمة إلياس مرقص - دار الحصاد للنشر- ١٩٩٤ .

٢٢- "معالم تاريخ الإنسانية" - هـ.ج.ولز- ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤ .

٢٣- "مقدمة فى علم التفاوض الاجتماعى والسياسى" - د. حسن محمد وجيه - عالم المعرفة - أكتوبر ١٩٩٤ .

٢٤- "مصطلحات فكرية" - سامى خشبة - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٤ .

٢٥- "إنهم يصنعون البشر" - فانس بكارد - ترجمة زينات الصباغ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٤ .

٢٦- "نهاية التاريخ وخاتم البشر" - فرانسيس فوكوياما - ترجمة حسين أحمد أمين - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٣ .

٢٧- "تاريخ الحضارات العام" - أندريه إيمار وآخرون - ترجمة فريد داغر وآخرون - منشورات عويدات - بيروت ١٩٩٣ .

٢٨- "التحليل السياسى الحديث" - روبرت أ. دال - ترجمة د. علاء أبو زيد - مركز الإهرام للترجمة والنشر - ١٩٩٣ .

٢٩- "قصة الحضارة" - ول ايربل ديورانت - ترجمة د. زكى نجيب محفوظ - دار الجيل - ١٩٩٢ .

٣٠- "مقال فى العبودية المختارة" - اتين دى لابويسيه - ترجمة د. مصطفى صفوان - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٢ .

٣١ - "وصف مصر" - علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب - دار الشايب للنشر - ١٩٩٢ .

٣٢- "غسيل المخ وتحطيم العقائد" - عبدالحكيم العفيفى - الزهراء للإعلام العربى - ١٩٩٢ .

٣٣- "سياسة وأقليات فى الشرق الأدنى - الأسباب المؤدية للانفجار" - آنى شابرى ولورانت شابرى - ترجمة ذوقان قرقوط - مكتبة مدبولى - ١٩٩١ .

٣٤- "الأمير" - نيقولا ميكافيللى - ترجمة على الجوهرى - مكتبة مدبولى - ١٩٩٠ .

٣٥- "سيكولوچية الخوف" - يوسف ميخائيل سعد - نهضة مصر - ١٩٩٠ .

٣٦- "موجز تاريخ العالم" - أ. مانفرد - ترجمة محمد عيتانى - دار الفارابى - ١٩٨٩ .

٣٧- "الدافعية والانفعال" - ادوارد موراى - ترجمة أحمد عبدالعزيز سلامة - دار الشروق - ١٩٨٨ .

٣٨- "استخدام القوة فى القانون الدولى" - علاء الدين حسين مكى - دار الشئون الثقافية العامة - ١٩٨٨ .

٣٩- "تاريخ الحضارات العام" - ادوارد بروى - ترجمة يوسف داغر وفريد داغر- منشورات عويدات - بيروت وباريس - ١٩٨٦ .

٤٠- "الغرب والعالم - تاريخ الحضارة من خلال موضوعات" - كافين رايلى - ترجمة د. عبدالوهاب المسيرى و د. هدى حجازى - عالم المعرفة - يناير ١٩٨٦ .

٤١- الأنثروبولوچيا - أسس نظرية وتطبيقات عملية " - د. محمد الجوهرى - دار المعارف - ١٩٨٣ .

٤٢- "علم النفس الفسيولوچى" - د. أحمد عكاشة - دار المعارف - ١٩٨٢ .

٤٣- "علم الاجتماع" - د. عبدالحميد لطفى - دار المعاف - ١٩٨٢ .

٤٤- "قوة الإرادة" - يوسف ميخائيل أسعد - مكتب غريب - ١٩٨٢ .

٤٥- "علم النفس الفردى" دكتور اسحق رمزى - دار المعارف - ١٩٨١ .

٤٦- "المعجم الوجيز" - مجمع اللغة العربية - دار التحرير للطبع والنشر - ١٩٨٠ .

٤٧- "شخصية مصر" - د. جمال حمدان - عالم الكتب - ١٩٨٠ .

٤٨- "التكيف النفسى" - د. مصطفى فهمى - مكتبة مصر - ١٩٧٨ .

٤٩- "القيادة وديناميكية القادة" - جو بوهلن وجورج بيل ونيل رودابلو - ترجمة د. محمد العربيان ، ود. إبراهيم شهاب - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٦٩ .

٥٠- "الحرب النفسية - معركة الكلمة والمعتقد" - صلاح نصر - دار القاهرة للطباعة والنشر - ١٩٦٦ .

٥١- "تطور الفكر السياسى" - جورج سباين - ترجمة حسن جلال العروسى - دار المعارف - ١٩٦٤ .

٥٢ - "الدوافع النفسية" - د. مصطفى فهمى - مكتبة مصر - ١٩٦٠ .

٥٣- "مشكلات الحياة الانفعالية - من الميلاد إلى ماقبل المراهقة"- سبرجيون أنجلش وجيرالدبيرسون - ترجمة فاروق عبدالقادر وآخرون - دار الثقافة الإنسانية للنشر - ١٩٥٨ .

٥٤ - "نيتشه" - عبدالرحمن بدوى - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٦ .

obeikandi.com